جارة القصر

رواية

ديوان العرب للنشر والتوزيع

اســـم الكتاب: جارة القصر
اســـم المؤلف: إيمان محمد سليم
التصنيـــــف: رواية
الحجـــــم: 14 - 20
عدد الصفحات: 206
سنة الإصـــدار: 2025
رقـــم الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: 21533 / 2025
الترقيم الدولي: 978 - 977 – 971 – 243 – 7

تدقيـــق لغوي: نشوة أبو الوفا
تصميم غـــلاف: شيماء عشري
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب
للتواصل: dewanalarabegypt@gmail.com
واتساب: 01030502390

جارة القصر

رواية

إيمان محمد سليم

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

إهداء

إهـداء إلـى
زاد طريقي، وكنز رحلتي، وعزيزة روحي .. إلـى أمـي الحبيبة.

إيمان محمد سليم

****

الفصل الأول

(كان اسمه عدنان)

تأملت ريم شوارع الفيوم من نافذة "التاكسي" وقد غلبها الشوق إليها، إذ لم تقم بزيارتها منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، حين كانت تقضي الإجازات في بيت جدها مع أمها وخالتيها وأبنائهما في أجواء سعيدة، تتناقض مع حالها هذه المرة، نظرت بتعاطف إلى أخيها أحمد النائم بتعب وأمها الناظرة أمامها بشرود؛ فقد كانت صدمة انهيار العقار الذي يقطنون فيه موجعة، وتَذكُرها لذاك المشهد لا يزال يوتر أنفاسها، وهي تستحضر رائحة التراب الذي عبق المكان، كأنه ستار أُسدِل على أيام طفولتها وشبابها، أخرجها من أفكارها صوت سائق "التاكسي" وهو يقول:

ـ ها قد وصلنا إلى الشارع، هل أدخله؟

فانتبهت أمها، وردت بهدوء:

ـ نعم، ثم سر إلى الأمام مباشرة.

انعطف السائق بهدوء، فتأهبت كل خلايا ريم شوقًا لرؤية القصر المجاور لبيت جدها، ولرؤية حديقته الغناء من نافذة غرفتها كما اعتادت أن تفعل في صغرها، بعد قليل قالت أمها للسائق:

ـ آخر الشارع، على اليمين.

فأوقف السائق "التاكسي" في الحال، والتفت نحوهما قائلًا باتهام:

ـ لا يوجد بآخر الشارع سوى القصر، إن كنتم ذاهبون إلى ذاك القصر، انزلوا هنا.

اتسعت عينا أمها من الدهشة، وسألته:

ـ لماذا؟

فالتفت ناظرًا أمامه، وقال بنفاذ صبر:

- لا تعطليني، انزلوا هنا.

فتنهدت أمها بضيق، وقالت:

- على كل حال، لسنا ذاهبين إلى القصر، وإنما إلى البيت المجاور له؛ بيت الحاج عبد الكريم عبد الصمد رحمه الله.

فقال السائق متشككًا:

ـ لكن لا أحد يسكن ذاك البيت.

فردت أمها بعصبية:

ـ ذاك بيت أبي، ونحن سنسكنه، هل توجد مشكلة عندك في هذا أيضًا؟

أخذ السائق نفسًا عميقًا، ثُمَّ عاد لقيادة "التاكسي" بصمت، فتساءلت ريم في سرها هل حقًا كان يقصد قصرها الحبيب نفسه؟ نظرت للسائق عبر المرآة الداخلية، فرأت الغضب لا يزال بادٍ على وجهه، فلم تجرؤ على سؤاله عن مشكلته مع القصر؟ وحوَّلت نظرها إلى أخيها، وقالت له:

- استيقظ يا أحمد، لقد وصلنا.

أنزلهم السائق أمام بيت الجد، واختلست ريم نظرة جانبية إلى القصر، غير أنها لم تقترب منه، إلا بعد أن أنزل السائق ماكينة الخياطة من حقيبة السيارة وذهب، فاقتربت من بوابة القصر؛ فوجدتها موصدة بسلسلة حديدية عليها قفل كبير، ونظرت بعدم تصديق إلى الحديقة عبر القضبان الصدئة، وقالت لأمها بحزن:

ـ يا الله! انظري يا أمي، لقد أصبح القصر مهجورًا.

ولمعت الدموع بعينيها، وهي تنهي الجملة، فاقتربت أمها وأحمد من البوابة، ونظرا عبرها إلى الحديقة القاحلة، ثم تنهدت أمها قائلة بحزن:

ـ سبحان من يُغيِّر ولا يتغير.

ثم توجهوا إلى بيت الجد، وفتحت أمها بابه بصعوبة شديدة، كان البيت صغيرًا للغاية، مكونًا من دورين، الدور الأول عبارة عن مدخل به غرفة واحدة بها أربعة أرائك قديمة التصميم، كانت تستخدم كمضيفة وكُتَّاب لتحفيظ القرآن، وأمام هذه الغرفة سُلَم يؤدي إلى الدور الثاني، حيث توجد

به غرفتان متقابلتان للنوم، وحمام ومطبخ، دخلت ريم خلف أمها إلى الغرفة التي تطل على القصر، فضغطت أمها زر الإضاءة، وقالت بضيق:

- كما توقعت، خدمة الكهرباء مقطوعة.

فقام أحمد بفتح النافذة الكبيرة المطلة على القصر، فأضاءت الغرفة بضوء ما قبل الغروب الهزيل، لكنه كان كافيًا لرؤية الأتربة التي علت كل شيء في الغرفة، فوضعت ريم ماكينة الخياطة من يدها، ونفضت الأتربة عن الأريكة، فجلست أمها عليها، وهي تقول بسعادة:

ـ ما أجمل بيت الأب!

فقالت ريم بتأييد:

ـ الحمد لله على نعمة الستر، أحيانًا يكون جُل ما يحتاجه المرء هو المأوى، حيطان وباب مغلق.

جلس أحمد بجوار أمه، واستند برأسه إليها، فربتت على ظهره بحب، بينما توجهت ريم إلى الحمام لتغسل وجهها، وعندما فتحت الصنبور لم تجد مياه، فخرجت بإحباط، وعادت إلى حيث أمها وأحمد، وأخذت تتأمل أرجاء الغرفة بحنين، فقالت أمها بامتنان، وهي تنظر لماكينة الخياطة:

ـ انظرا إلى لطف ربنا، اتصل بي الأسطى سليمان منذ أيام لأستلم ماكينة الخياطة بعدما قام بتصليحها، وشيء ما منعني من الذهاب إليه، ولو كنت فعلت للاقت مصير أغراضنا تحت الأنقاض.

فقالت ريم بابتسامة:

ـ الحمد لله يا أمي، أعرف أن مكانتها كبيرة عندك لأنها تخص جدتي.

صمتت أمها قليلًا، ثُمَّ سألتها:

- هل وجدتِ مياه بالحمام؟

فردت ريم بهدوء:

ـ لا، لقد تم قطع الخدمة أيضًا.

فبدا على وجه أمها الحزن، وقالت:

ـ لقد أحضرت زجاجة مياه معدنية تكفينا حتى الصباح إن شاء الله، واشتريت شموعًا تحسبًا لقطع خدمة الكهرباء، سندبر حالنا حتى يعود عمكما من العمرة، ويستأجر لنا شقةً بجواره من أحد معارفه حتى يتغاضى عن أخذ تأمين مقدم منا.

فسألها أحمد باعتراض:

ـ كيف نتدبر حالنا هكذا يا أمي؟ لا نعرف متى سيعود عمي، قد يطول بقائه عند ابنه لأكثر من شهر.

- كما تعلم يا حبيبي لقد فقدنا أموالنا تحت الأنقاض، ولا يزال يتبقى أكثر من أسبوعين حتى نقبض المعاش، لذا لا حل أمامنا إلا الصبر على هذا الوضع.

فاقتربت ريم منها، وقالت برجاء:

ـ يا أمي، لم لا تدعيني أقوم ببيع الخاتم، لندفع مصاريف إعادة الخدمة؟

ـ تبيعين هدية أبيك؟ التي تحمل اسمك واسمه!

ـ للضرورة أحكام.

ـ لا ليست ضرورة، سنعيش مؤقتًا كما عاش أجدادنا، لأنها ستكون مصاريف لا داعي لها لأننا سنترك هذا البيت مرة أخرى عندما يعود عمك.

وصمتت قليلًا، ثم أضافت بندم:

- يكفي أنكِ قمت ببيع هاتفك المحمول لنتدبر حالنا حتى موعد قبضنا للمعاش، هل تظنين إن هذا كان سهلًا عليَّ.

ـ لا تشعري بالذنب يا أمي، فأنا لم أكن أستخدمه إلا نادرًا، يكفينا هاتفك المحمول البسيط.

فسألهما أحمد:

ـ لكن من أين سنحصل على المياه؟

ـ سنذهب إلى السوق غدًا لنشتري زجاجة بلاستيكية كبيرة، لنملأها يوميًا من عند الجيران.

ثُمَّ استدركت، وقالت بأسى:

ـ لقد نسيت أن القصر أصبح مهجورًا، سنبحث عن مكان آخر غيره.

لم تشأ ريم أن تبث الإحباط في نفس أمها، فضمتها بدفء، وقالت:

ـ الحمد لله أننا بخير.

وقبَّلت رأسها، فلف أحمد ذراعيه حولهما وهو يقول:

ـ طالما إننا معًا وبخير، فأي مكان يجمعنا سيصير كالقصر.

تذكرت ريم القصر، فتوجهت صوب النافذة، ونظرت إليه بحزن، ودمعت عيناها ، فاقترب أحمد منها، وسألها:

- للمرة الثانية أرى دموعك من أجل هذا القصر، ألهذه الدرجة تحبينه؟

فمسحت دموعها المنسابة، وقالت وهي تنظر إلى القصر بحب:

- نعم أحبه، وكنت ولا أزال أشعر بثمة رابطة لا أعرف سرها تربطني به.

ثم نظرت لأخيها، وقالت من بين دموعها:

- أنت لم ترَ كيف كان براقًا، مليئًا بالبهجة، نابضًا بالحياة، أما الآن ، انظر! الأرض وقد تشققت، المقاعد الرخامية وقد غطاها التراب السميك، والأشجار وقد تساقطت أوراقها، ما عدا الشجرة العتيقة، لا تزال صامدة، متحسرة على حاله، شاهدة على عصره الذهبي الذي كان.

ربتت أمها على كتفها، وقالت بحزن:

ـ أتذكر جيدًا في آخر زيارة لنا للفيوم، قبل أن تولد بعام يا أحمد، أرسل لي حفيد صاحب القصر محاميه عز الرجال حيَّان.

ضحك أحمد، وسألها بمرح:

ـ أتذكرين اسمه يا أمي؟

ـ لأن اسمه كان مميزًا، قابلني المحامي وكان شابًا وقتها، وعرض عليَّ عرضًا مغريًا لشراء بيتنا هذا ليقوموا بهدمه وضم مساحته إلى حديقة القصر بحجة توسعتها، لكن الحقيقة أن بيتنا كان يشوه المنظر العام، فأنا أعرف أن الحديقة شاسعة لا تحتاج إلى توسعة، ومساحة الجزء الجنوبي منها

ضعف مساحة الجزء الأمامي، فقد كنت ألعب هناك في صغري مع ابنتيّ صاحب القصر فريال وعزة بعيدًا عن أعين أبيهما.

تركت أمها النافذة، وراحت تُهيّء الفراش لينامو عليه، وأخذ أحمد يساعدها، بينما أبحرت ريم في ذكرياتها مع القصر، وتذكرت الشبان الثلاثة الذين كانوا يأتون إلى القصر في الشتاء من كل عام، فكانت تراهم في إجازة نصف العام، يملؤون القصر وطرقات القرية بالحيوية والمرح، وكان أبناء القرية يلتفون حول الشابين الصغيرين ليشاهدوا سياراتهما الحديثة وملابسهما الفخمة، ومهاراتهما في ركوب الخيل، أما الشاب الأكبر، كانت تلتف حوله قطط الشارع كل صباح، فكان يقدم لهم الطعام بيديه، ابتسمت ريم وهي تذكر ذلك اليوم حين رأته يطعمهم لأول مرة، كانت تقف أمام بيت جدها بصحبة صديقتها معتزة، وجاء حسين الأخ الأكبر لمعتزة حاملًا الجرائد وقد أرسله والده بها لصاحب القصر، فوقف حسين معهما لحين خروجه إليه، وما إن خرج من بوابة القصر وبيده طبق كبير حتى التفت حوله القطط من كل اتجاه، بعد أن صفَّر لهم، فتجمعوا بأعداد كبيرة في لحظات، فخافت معتزة وابتعدت عنهم عدة خطوات، بينما دمعت عينا ريم من جمال وغرابة المشهد بالنسبة لها، وعندما لاحظ دموعها، قرب الطبق منها، وقال لها بلطف:

ـ اطعميهم بنفسك إذا أردتِ.

ما تزال تذكر لون عينيه الرماديتين، كانت المرة الأولى والوحيدة التي ترى فيها عينين بذلك اللون، فأعطى لها الطبق، وأعطى لحسين مبلغًا ماليًا كبيرًا فوق ثمن الجرائد، وقال له بابتسامة:

ـ هذا ثمن الجرائد، وهذا المبلغ هدية لك ولأختيك، دللهما اليوم لأقصى حد.

والتفت عائدًا إلى القصر، فتهلل وجه حسين، وقال بصوت عالٍ:

ـ شكرًا، شكرًا لك يا عدنان بيه.

تنهدت ريم، وقالت بشجن:

ـ نعم كان اسمه عدنان.

وتساءلت بحزن: تُرى أين ذهب عدنان؟ وأين ذهب الآخرون؟ ولِمَ تركوا القصر على هذه الحالة الموجعة للقلب؟

استيقظت ريم بعد ساعات قليلة، فزِعة على صوت نباح الكلاب، كما كان يحدث لها في صغرها، فكان يؤنسها صوت عدنان، وهو يقرأ القرآن في صلاته في جوف الليل تحت الشجرة العتيقة التي تقع تحت نافذتها تمامًا، لكم تفتقد الآن تلاوته الدافئة لتُذهب وحشة ليلتها الأولى في الفيوم، فقامت بحذر حتى لا توقظ أحدًا، ونظرت تجاه القصر، فلاحظت وجود إضاءة خافتة في إحدى غرفه بالدور الأرضي، فتوترت أنفاسها من المفاجأة، ورغم دهشتها إلا أنها شعرت بسعادة خفية، لهذا النبض الضعيف الذي دبَّ في قصرها الحبيب.

في اليوم التالي، بعدما صلت ريم صلاة الضحى، وأنهت قراءة وردها اليومي من القرآن، أعطت المصحف لأمها، وأخرجت السبرتاية التي اشترتها بالأمس، وأعدت الشاي باللبن المجفف، وقدمته لأمها وأخيها مع البقسماط، وفاجأت أمها عندما أخرجت لها من حقيبتها راديو يعمل بالبطارية، فسألتها أمها بسعادة:

- من أين حصلت عليه يا ريم؟

- اشتريته لك بالأمس بعد خروجي من المدرسة التي تركتُ بها سيرتي الذاتية من قبل، وخبأته عنك حتى أفاجئك به الآن، فأنا أعرف أن من أهم طقوسك في الصباح بعد شرب الشاي باللبن مع البقسماط، قراءة القرآن إلى أن تستمعين إلى البرنامج الإذاعي الصباحي لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي على إذاعة القرآن الكريم، الله لا يحرمك من هذه العادة يا حبيبتي.

ضمتها أمها بسعادة، وقالت:

- حفظك الله يا ابْنتي، لقد أدخلتِ السرور إلى قلبي، لكن لماذا ذهبتِ إلى تلك المدرسة بالأمس؟

- توجهت لإدارة شؤون العاملين بها، لأكتب رقم هاتفك المحمول في سيرتي الذاتية، بدلًا من رقم هاتفي القديم، وأخبرني الموظف هناك أنهم سيبدؤون في التواصل مع المتقدمين للوظيفة بعد ثلاثة أسابيع.

- يوفقك الله لما يحب ويرضى يا ابنتي.

أخذت ريم كوب الشاي الخاص بها، وتوجهت نحو النافذة، وما إن نظرت إلى القصر حتى تذكرت أمر الإضاءة الخافتة التي رأتها بإحدى غرفه بالأمس، فأخذت تمعن النظر في أرجاء الحديقة، فلم تجد إلا السكون يخيم على القصر وحديقته، ففكرت بيأس: ربما كنت أتخيل ذلك، أو ربما كان حلمًا، أخرجها من أفكارها أن رأت حركة على البعد، فانتفضت وانتبهت إليها بكل حواسها، إنه رجل! رجل طويل ونحيل يخرج من باب القصر الداخلي، فتوارت قليلًا حتى لا يراها، وهو ينزل سلالم القصر ببطء، كان يتضح قليلًا كلما اقترب، ملابسه رثة، وبقدمه عرج ملحوظ، أما ملامحه فلم تستطع تبينها بسبب شعره الطويل الأشعث المُسدل على جبهته، وبسبب شاربه وذقنه الكثيفين، وضع أحمد يده على ذراعها، ففزعت، فسألها بخوف:

- ما الأمر يا ريم؟ يبدو على وجهك الاضطراب.

فابتلعت ريقها بصعوبة، وأشارت بيدها قائلة بتلعثم:

- انظر إلى تلك الزاوية البعيدة.

فتتبع بنظره ما تشير إليه، واقتربت أمهما منهما، وسألت بقلق:

- ما الأمر؟

فقالت ريم بأنفاس متلاحقة:

- لقد رأيتُ رجلًا، خرج من باب القصر الداخلي، وتوجه نحو الجزء الجنوبي من الحديقة.

فتفاجأت أمهما، لكنها قالت بعقلانية:

- قد يكون حارسًا للقصر.

وصمتت قليلًا، ثم قالت:

- كفى فضول، وهيَّا بنا إلى السوق.

سبقت ريم أمها إلى الشارع، واقتربت من باب القصر بحذر، فلحق بها أحمد، فوجدا السلسلة الحديدية مكانها وعليها القفل، فسألها أحمد:

- هل القصر مغلق على ذاك الرجل؟

حارت ريم مثله، وأجابته باضطراب:

- لا أدري.

فاقتربت منهما أمهما، فقال أحمد بدهشة:

- انظري يا أمي! السلسلة لا تزال مكانها، والرجل بالداخل.

فسألت ريم أمها:

- ترى من يكون؟ هل هو سارق؟ أم مشرد استغل خلو القصر؟

فبدا على وجه أمها القلق، ثُمَّ قالت:

ـ لماذا كل هذا الاهتمام بالقصر ومن فيه؟ هيا لنبحث عن مكان نحصل منه على المياه، وحتى نشتري شيئًا نأكله.

ساروا مسافة طويلة حتى وصلوا إلى نهاية الشارع، ومروا بمركز طبي صغير، كان مزدحمًا بالمرضى، فقالت أمهما:

ـ هذا المركز لم يكن موجودًا من قبل.

فقال أحمد بحماس:

ـ إذن فقد عرفنا من أين سنحصل على المياه، فهذا أقرب جار لنا.

فقالت ريم تؤيده:

- معك حق، مع إنه بعيد عن بيتنا كثيرًا.

فدخلوا المركز، وسألوا موظف الاستقبال عن صاحب المركز، فدخل إلى غرفة مغلقة ثُمَّ خرج إليهم مجددًا، وسمح لهم بالدخول، فقابلهم شابٌ، مريح الوجه، ووقف عند دخولهم، وقال:

ـ أنا الطبيب سامي، مدير المركز.

ـ مرحبًا يا بني، وأنا خالتك فوزية وهذه ابنتي ريم، وهذا ابني أحمد.

- مرحبًا بكم، كيف أستطيع مساعدتكم؟

- لقد انتقلنا حديثًا من القاهرة، لكن خدمة المياه مقطوعة عندنا حاليًا، فهل نستطيع أن نملأ زجاجة كبيرة من مياه المركز مرة واحدة في اليوم؟

ـ لا حاجة للاستئذان يا أمي، المكان مكانكم، سأعطي تعليمات للعاملين بالمركز بالسماح لكم بذلك في أي وقت.

وأضاف بتهذيب:

ـ وإذا احتجتم إلى أي شيء ما عليكم سوى الأمر.

ـ بارك الله فيك يا بُني.

شعرت أمها بالسعادة لتأمين المياه، وعلى بعد مسافة كبيرة من المركز الطبي، عند تقاطع شارعهم مع الشارع الرئيسي، رأوا على البعد محل بيع الجرائد، فتأملته ريم قبل أن يعبروا الطريق إليه، وقالت لأمها:

ـ الحمد لله، محل والد معتزة صديقتي لا يزال على حاله، لكن تُرى هل أجدها فيه؟

ما إن اقتربوا من المحل، حتى رأوا معتزة تجلس بداخله، فابتسمت لها ريم، وقالت بفرح:

ـ معتزة!

فوقفت معتزة من المفاجأة، وقالت:

ـ ريم! هل هذا معقول؟ لم تتغيري قط.

واحتضنتها بدفء، ودمعت عيناها مثلها.

ـ كم أفتقدك يا ريم، مرحبًا يا خالة فوزية، أمي ستفرح كثيرًا لرؤيتك.

نادت معتزة على أمها فأقبلت، وتهلل وجهها لدى رؤية أم ريم، ثُمَّ دلفت معها إلى داخل المنزل، وبعد أن عرَّفت ريم معتزة على أخيها أحمد، أعطته معتزة بعض المجلات ليتصفحها، واستأذنتها ريم في شحن هاتف أمها المحمول عندها، وسألتها عن أحوالهم فأخبرتها أنها تخرجت من كلية التجارة، وتساعد أخاها حسين وزوجته في إدارة محل الجرائد بعد وفاة أبيهم، أما أخوها عمر فقد تخرج من كلية الزراعة، وتزوج أيضًا ولديه

مشتل يبيع فيه الشتلات والأشجار والبذور، لم تستطع ريم منع نفسها من السؤال عن القصر، فسألت بلهفة:

ـ هل تذكرين القصر المجاور لبيت جدي؟

فتبدلت ملامح معتزة، ولم ترد، فأضافت ريم بابتسامة:

- لقد كنت تأتين خصيصًا لزيارتي لمشاهدة حديقته من نافذة غرفتي...

فسألتها معتزة باستنكار:

ـ وما شأننا به؟!

ـ هل تعرفين إن كان يسكنه أحد الآن؟ أم دخله مشرد؟

فأسكتتها بحزم:

ـ ليسكنه المشردون أو الكلاب، ما شأننا به؟

صمتت ريم بإحباط، وعندما انتقلت معتزة للحديث في مواضيع أخرى، ظلت تسمعها بشرود وهي تفكر: يبدو أن هناك مشكلة بالقصر ليست مع سائق التاكسي فقط كما كانت تظن، يبدو أن هناك سر يحيط به، وكما لم تجرؤ على سؤال سائق التاكسي عنه من قبل، أخرستها ملامح معتزة الغاضبة أيضًا، فصمتت إلى أن خرجت أمها، فذهبوا لاستكمال جولتهم في السوق، فوجدوا العديد من المحال التجارية التي لم تكن موجودة من قبل، فدخلوا محل بقالة كبير وحديث، به جزء خاص بالمجمدات، الأجبان والأدوات المنزلية، فقاموا بشراء زجاجة بلاستيكية كبيرة، كما دخلت أمها

محل أدوات الخياطة واشترت بعض الأقمشة والخيوط، وفي نهاية جولتهم اشتروا شطائر الفول والطعمية.

وفي طريق عودتهم من السوق ملأوا الزجاجة بالمياه من المركز الطبي، وحملتها ريم بصعوبة بالغة، وعندما وصلوا إلى البيت، ارتمت على الأريكة الصغيرة بتعب، وقالت لأمها:

ـ فكرة جلب المياه من المركز عمليًا صعبة جدًا يا أمي.

- أعلم يا ابنتي، لكن ما باليد حيلة.

وشرعت في إخراج أغراض الخياطة وهي تقول لريم بحماس:

ـ سأخيط لي ولكِ جلبابين للمنزل، وبيجاما لأحمد.

فقال أحمد باعتراض:

- دعي الخياطة الآن يا أمي، فأنا جائع.

بعد أن تناولوا طعامهم، استسلم أحمد للنوم، وبدأت أمها في تحضير الجلاليب قبل انحسار ضوء النهار، فقامت ريم بتنظيف الطابق العلوي والسلم، ولم يسعفها الوقت لتنظيف الدور الأرضي لحلول الليل، نامت أمها مثل أحمد، أما ريم فتوجهت إلى نافذتها، ورأت الإضاءة في الغرفة نفسها بالقصر كما حدث بالأمس، فظلت مستيقظة طوال الليل، تراقب القصر، وتتقاذفها الأفكار بشأن ساكنه الغامض، إلى أن راودتها فكرة لكشف لغز ذلك الرجل.

وفي الصباح، عندما توجهت مع أحمد لجلب المياه من المركز الطبي، أخرجت من حقيبتها ورقة وقلم، وكتبت فيها " لقد انتقلنا إلى البيت المجاور لقصرك منذ أيام، وخدمة المياه مقطوعة عن بيتنا، لذا سنكون شاكرين إذا فتحت لنا باب القصر، وسمحت لنا باستخدام صنبور المياه الموجود بالحديقة لملء زجاجة كبيرة مرة واحدة كل صباح" وبحث أحمد عن حجر متوسط وأعطاه لها، فوضعت الورقة حوله ولفَّتها جيدًا، وألقت بها عبر السور الحديدي للقصر من زاوية قريبة من طريق عودة الرجل من الجهة الجنوبية.

ثارت أمها عندما أخبرتها ريم بما فعلت، وسألتها بانفعال:

- كيف تتواصلان مع شخص مجهول بهذه الطريقة؟

- ما المشكلة يا أمي؟

- قد يكون لص أو مجرم يا ريم.

فقال أحمد بهدوء:

- اهدئي يا أمي، قد لا يلاحظ الورقة من الأساس.

وقالت لها ريم بعقلانية:

- وقد يكون حارسًا للقصر كما قلتِ، وإذا استجاب لطلبنا، سيوفر علينا المشقة.

وفي صباح اليوم التالي، وبينما كانت ريم متوجهة مع أحمد إلى المركز الطبي، فوجئا بباب القصر بدون السلسلة الحديدية أو القفل، وعندما دفعه أحمد بهدوء انفتح في الحال، فقال بسعادة:

ـ الحمد لله، يبدو أنه وافق على طلبنا، كانت فكرة جميلة منك.

فنظرت ريم تجاه القصر، وقالت بامتنان:

ـ لكن أروع من الفكرة استجابته.

وسألها أحمد بحماس:

- ماذا سنفعل الآن؟

- سأستشير أمي، انتظرني هنا.

بعد إلحاح شديد من ريم، وافقت أمهما على أن يقوما بجلب المياه من القصر، ووقفت لهما بالنافذة ترقب أي تحرك من داخل القصر، عندما وطأت ريم أرض حديقة القصر بقدميها لأول مرة في حياتها، غمرها شعور غريب، وكأن القصر انتظرها طويلًا، فما إن تعرفت أرضه على خطواتها، حتى احتفت بها، وكأنها تقبل قدميها مع كل خطوة تخطوها عليها، وشعرت ريم بنفسها سابحة في موجات عطرٍ دافئة تموج في بحر من السعادة اللا نهائية.

الفصل الثاني

(بريقُ نورٍ لا يخبو)

في اليوم التالي بعد أن جلبت ريم المياه من القصر مع أحمد، وقفت عند النافذة كعادتها، فقالت لها أمها:

- يا ابنتي، هذه الفترة فرصة ذهبية لك لمراجعة حفظك المتفلت من القرآن، قبل معاودتك للعمل، فحفظ أخيك الأصغر أكثر إتقانًا من حفظك.

تنهدت ريم، وقالت بدفاع:

- لقد أنهيتُ ورديّ القراءة والمراجعة.

فبدا على أمها عدم التصديق، وقالت:

- بعد أن أختبر أحمد، سأختبرك في سورة هود.

فقال أحمد بحماس:

- لم لا تعاودي تحفيظ القرآن هنا يا أمي.

ابتسمت له أمهما، وقالت بحب:

- هذه أمنية حياتي، أن أعيد فتح كُتّاب جدك ، فقد تخرج على يديه حُفاظًا كثر.

- إذن ادرسي الأمر، على الأقل حتى يعود عمي.

انتبهت ريم إلى الرجل الموجود بالقصر وهو يخرج من باب القصر الداخلي في الوقت نفسه الذي رأته فيه أول مرة، فدق قلبها بسعادة لا تفهم سرها، لاحظت أن حركته أصبحت أبطأ، ورأته يتوجه صوب الجهة الجنوبية من الحديقة، وبيده عدة أكياس، وعاد بعد ساعتين تقريبًا، وأصبحت ريم تراه يوميًا في الموعد نفسه ذهابًا وإيابًا، ولاحظت أن حركته تزداد صعوبة كل يوم عن اليوم الذي قبله.

وفي أحد الأيام وقفت ريم تنظر إلى حديقة القصر بقلق، فلاحظت أمها ذلك، وسألتها:

ـ ما بك يا ريم؟ يبدو وجهك مصفرًا.

فقالت بقلق:

ـ ذاك الرجل الموجود بالقصر، أراه يذهب كل يوم إلى الجهة الجنوبية، ويعود بعد ساعتين، أما اليوم ذهب ولم يعد منذ أكثر من أربع ساعات، أخشى أن يكون أصابه مكروه.

ـ ماذا يمكن أن يصيبه يا ابنتي؟

ـ أشعر بالقلق عليه لأن حركته اليوم كانت شديدة الصعوبة.

انضم أحمد إليهما، ونظر إلى الحديقة بقلق، وقال:

ـ ربما عاد في غفلةٍ منك يا ريم.

ـ لا، أنا متأكدة أنه لم يعد.

أمسكت ريم يد أمها، وقالت برجاء:

ـ أمي! لنرَ ما حل به.

ـ يا ابنتي! نحن لا نعرفه؟

فقال أحمد باستعطاف:

ـ لقد ساعدنا دون أن يعرفنا.

ترددت أمهما، ثُمَّ أخذت نفسًا عميقًا، قبل أن تقول:

ـ حسنًا، لكن إذا لم نجده بالحديقة، فلن ندخل إلى القصر.

فانطلقوا مسرعين، ودخلوا الحديقة، والأوراق تتطاير حولهم مع أقل هبَّة ريح، وأخذوا يتلفتون هنا وهناك بحثًا عنه، وتوجهت ريم تجاه الجهة الجنوبية تسبقهم بخطوات، وأخيرًا لمحت على البعد كومة على الأرض، فاقتربت منها بحذر، فلما تبينته، صاحت:

ـ لقد وجدته.

كان واقعًا ممددًا على الأرض، فرفع رأسه عندما سمع صوتها، وعندما وقفت بجواره فتح عينيه عن آخرها، وسألها بدهشة:

- من أنتِ؟

دق قلب ريم بقوة، وقد عرفته من عينيه، إنه عدنان نفسه، فهالتها المفاجأة، فنظر لها بتعب منتظرًا ردها، لكنها لم تتغلب على صدمتها في الحال، فصمتت، فرفع نظره إلى أمها وأحمد، وقد وقفا بالقرب منه، فأعاد النظر إلى ريم، وسألها بصوت ضعيف:

ـ من أنتم؟

فردت بصوتٍ متحشرج:

ـ نحن جيرانك، نسكن بالبيت المجاور للقصر، جئنا لنساعدك.

فأغمض عينيه، وقال متألمًا:

ـ لا أريد مساعدة من أحد، اخرجوا من فضلكم.

فقالت له أمها وهي تنظر بصدمة إلى مظهره المريب:

ـ سنخرج، لكن اخبِرنا أولًا ، هل أنت بخير؟

فقال دون أن يرفع رأسه:

ـ نعم ، بخير، اخرجوا رجاءً.

فجذبتها أمها من يدها، وقالت لها:

ـ لا داعي لمضايقته.

فتركت ريم يدها بهدوء، وجثت على ركبتيها بجواره، وقالت بقوة ليسمعها:

ـ لن نخرج حتى تنهض على قدميك أولًا.

فرفع رأسه بضعفٍ، وحاول أن يعتدل بعناد، غير أن قوته خانته، ولم يستطع النهوض، فأغمض عينيه متألمًا، فقالت ريم برجاء:

ـ دعنا نساعدك إذن.

فقال بصوت شديد الوهن:

ـ أنا بخير.

رغم إشفاقها عليه من الجدال، إلا أنها أصرت على مواجهته، فقالت:

ـ لا لستَ بخير، قدمك بها مشكلة، لقد رأيتك اليوم وأنت تعاني صعوبة في المشي أكثر من الأيام الماضية.

ففتح عينيه مجددًا، ونظر لها بدهشة، وجبينه يتفصد عرقًا، وما لبث أن ارتخى جسده، وانهار ممددًا على ظهره باستسلام، فسأل أحمد أمه برعب:

- ما الأمر يا أمي؟ هل مات؟

فنادته ريم بخوف:

ـ سيد عدنان؟

فنظرت لها أمها بذهول، وسألتها بعدم تصديق:

ـ من؟! هل هذا عدنان؟

فقالت ريم بصوت مشوب بالحسرة:

ـ إنه هو يا أمي، عدنان.

وبكت وهي تسألها:

- لمَ لمْ يعد يرد؟

فقالت أمها تطمئنها:

ـ أعتقد إنه فقد الوعي من تأثير حرارته الشديدة.

فاطمأنت ريم قليلًا، وقالت:

ـ لنحمله إلى الداخل.

فقالت أمها:

ـ لن نستطيع فعل ذلك وحدنا.

ـ سأبحث عمن يساعدنا إذًا.

فقال أحمد:

- سآتي معك.

بعد دقائق من وقوفهما على أطراف الشارع، وجدا رجلًا على البعد، فاستوقفاه، وشرح له أحمد الأمر، فهمَّ بمساعدتهما، لكن عندما أشارا إلى القصر، رفض الدخول، وتركهما وسط دهشتهما، فوقفت ريم لثوانٍ مشلولة التفكير، وتلفتت يمنة ويسرة فلم تجد أحدًا، فهداها تفكيرها إلى المركز الطبي، فذهبا إليه جريًا، وهناك قابلا الطبيب سامي، فرحب بمساعدتهما، وخرج معهما على الفور، ولم تبلغه ريم عن وجهتهم إلا بعد وصولهم إلى القصر، وشعرت بالارتياح عندما دخل معهما بلا اعتراض، وقام سامي بحمل عدنان بمساعدتهم، ودخلوا به إلى الغرفة الوحيدة التي وجدوها مضاءة، كانت غرفة مكتب، فوضعوه بحرص فوق إحدى الأريكتين الموجودتين بها، نقل سامي بصره فيما حوله بريبة، بين الأتربة وخيوط العناكب، ثم نظر إلى عدنان بملابسه الرثة، وذقنه وشعره الأشعثين، فخافت ريم أن يرفض علاجه، ولتصرف نظره عن مظهره، أخبرته بشكوكها حول إصابة قدمه، فأخذ نفسًا عميقًا، ثم رفع البنطلون عن قدمه اليمنى بصعوبة، فهالهم منظر جرح كبير أسفل الركبة وممتد إلى ما فوق الكعب، كان الجرح متورمًا بصورة مخيفة، فامتقع وجه سامي، وتخلى عن ريبته من حالة القصر وصاحبه، واستحضر مهاراته الطبية، وبدأ يخرج أدواته من

حقيبته باضطراب، شعرت ريم بجسدها يرتعش من الخوف على عدنان بسبب تعبيرات وجه الطبيب غير المطمئنة، وبعدما قام بتطهير الجرح ووضع الضمادة حول قدمه، قال بجدية:

ـ يجب أن يُنقل إلى مستشفى لأن جرحه ملوث منذ أيام، وحالته سيئة للغاية، والمركز عندي بسيط، وغير مجهز لعلاج مثل هذه الحالة.

وأعطى ريم قائمة بالدواء المطلوب، وسألها إن كان بإمكان أحد منهم إعطائه الحقنة، فردت بالنفي، فأعطى لها رقم هاتفه المحمول، وطلب منها أن تتصل به فور أن تحضرها، على أن يأتي بنفسه لإعطائها له، وبعد ذهابه، وقفوا ينظرون إلى وجه عدنان المتألم وهو نائم، فسألت ريم أمها بخوف:

ـ ماذا سنفعل الآن يا أمي؟ هل تعرفين أحدًا من أقاربه لينقله إلى المستشفى؟

ردت أمها بصوت ملؤه اليأس:

ـ لا، فكل ما أعرفه عنه، أن أمه اسمها عزة، وخالته اسمها فريال.

فقال أحمد بحماس، وهو يفتح عينيه عن آخرها:

ـ المحامي، المحامي يا أمي.

فقالت ريم بأمل:

ـ نعم، ماذا كان اسمه يا أمي؟

فمسحت دموعها، وقالت لريم بحماس:

ـ عز الرجال حيان.

اتصلت ريم بخدمة الدليل، وحصلت على رقم مكتب المحامي، وتواصلت معه، وشرحت له الموقف في عجالة، فأخبرها أنه سيأتي بأقصى سرعة، فتركت أحمد مع أمها، وذهبت لتشتري الدواء، فأخبرها الصيدلي بثمنه، وكان أكثر من عَشر أضعاف المبلغ الذي كان معها، ودون تردد دخلت محل بيع المصوغات الذهبية المقابل للصيدلية، وقامت بخلع خاتمها الذهبي، ولاحظ الصائغ دموعها وهي تتأمل اسمها واسم أبيها المنقوش عليه من الداخل للمرة الأخيرة، قبل أن تعطيه له ليبيعه، فقال بتأثر:

ـ يبدو أنه غالٍ عليك ، ريم هو اسمك أليس كذلك؟

ـ نعم، وعبد الرحيم اسم أبي، رحمه الله.

فتردد لثوانٍ، ثُمَّ قال:

ـ اعذريني يا ابنتي، لقد لمحتك تخرجين مضطربة من الصيدلية قبل أن تأتي إليَّ، أنتِ مثل بنتي، لذا بإمكانك أخذ ثمن الدواء، دون الحاجة لبيع الخاتم، وعندما يتيسر الحال، أرسلي لي ثمن الدواء.

فشكرته ريم بامتنان، ورفضت بتهذيب، وأمام تصميمها قال:

ـ إذن سأحتفظ لك به في خزانتي، حتى تأتي وتأخذيه، اتفقنا؟

ـ هذا لطف منك، اتفقنا.

عادت ريم إلى القصر، وأنارت الأنوار بالصالة الكبيرة، وكان بها أثاث كثير تغطيه ملاءات غارقة في الأتربة، وخيوط العناكب قد تدلت في كل الزوايا،

وسمعت صوت سامي مع أمها وأحمد، وقد جاء قبل أن تتصل به، فأعطى عدنان الحقنة، وسألها باهتمام:

ـ والآن أرجو أن تأتوني بملابس نظيفة له، لأن ملابسه ملوثة من الجرح، والنظافة والتعقيم مهمان جدًا من أجل سلامته.

صعدت ريم مع أمها إلى الدور العلوي، كان الظلام يعمه أيضًا، فأنارت الردهة بحذر، فبدت أمامهما غرف كثيرة متقابلة، فدخلتا أول غرفة صادفتهما، فوجدتا بها سرير ملقى عليه الغطاء بإهمال، فتحت أمها دولاب الملابس فوجدته فارغًا، لمحت ريم بابين بالغرفة، فتحت أحدهما فوجدته يفضي إلى حمام داخلي، والآخر يفضي إلى غرفة متصلة بغرفته، في طرفها سرير بجواره على الأرض حقائب ملابس مغلقة، ما عدا حقيبة واحدة مفتوحة وتبدو الملابس منها، فأخذت أمها منها بيجاما بيضاء فخمة، وتعجبت ريم من إصرار عدنان على ارتداء ملابس رثة، ولديه كل هذه الملابس التي لم يكترث لوضعها في أماكنها، فشعرت بالأسى من أجله، وتساءلت بحزن: تُرى ماذا حلَّ به فأفقده الشغف تجاه كل شيء؟

أعطت أمها البيجاما لأحمد الذي دخل مع سامي ليساعده، وعندما خرجا إليهما بعد قليل، أعطى أحمد الملابس المتسخة لأمه، وقال لها سامي:

ـ رجاءً يا خالتي، أعدي له حساءً، لأن ذلك الدواء الذي سأعطيه له عقب استيقاظه يؤخذ قبل الأكل.

ـ وهل سيستيقظ الليلة؟

ـ أتوقع أن يستيقظ بعد قليل.

سمعوا صوت سيارة بالخارج، وبعد لحظات دخل رجل طويل يبدو في نهاية الأربعينات من عمره، يجري نحوهم منزعجًا، وهو يسأل:

ـ أين عدنان؟

فقادته ريم إليه قائلة:

ـ تفضل من هنا.

فوقف على باب المكتب متسمرًا في مكانه، وهو ينظر إلى حيث يرقد عدنان، ثُمَّ اقترب منه، وتهاوى على الأريكة المقابلة له، وقد هاله منظره، وبدأ عدنان يتململ في نومه، فقالت ريم بصوت خفيض:

ـ الطبيب سامي سيطلعك على تفاصيل حالته.

فأخذ يستمع إلى سامي بصمت دون أن يرفع عينيه عن عدنان، وعندما انتهى سامي من كلامه، تساءل المحامي بحزن:

ـ من يمكن أن يقنعه بالذهاب إلى مستشفى؟

فقال له سامي بحدة:

ـ الأمر ليس مزحة، بل تتوقف عليه حياته.

فنظر له المحامي، وقال بصوت غاضب:

ـ أنا لا أمزح، عدنان لا يسمح لي ولا لغيري بدخول القصر، أنا لم أره منذ مدة، كنت أشتري لوازمه وألقيها له من فوق السور دون مقابلته بناءً على

تعليماته المشددة فكيف سأقنعه أنا بالذهاب إلى مستشفى؟ إن عجبي لشديد لأنكم استطعتم دخول القصر من الأساس.

فحاولت أم ريم تهدئة التوتر بين المحامي والطبيب، فقالت للمحامي بعقلانية:

- إذًا، دُلنا على من له تأثير عليه ليقنعه بذلك.

فتنهد بأسى، وقال:

- لم يعُد لديه أحد.

فلمعت الدموع في عيني ريم إشفاقًا على عدنان، ورفع سامي حاجبيه، وقال بانفعال:

ـ لقد قمت بجهدي، لكن الجرح لا ينبئ بالخير، وعاقبة تلوثه ستكون وخيمة إن لم يُنقل للمستشفى بسرعة.

فتح عدنان عينيه، ونظر نحوهم بدهشة، وهو يرى خمسة أزواج من العيون محدقة في وجهه بتركيز، فعبس وجهه، وقال بضعف:

ـ اخرجوا من هنا.

فتكلم سامي إليه بهدوء، وساعده المحامي كذلك في شرح الوضع باختصار، فثار عليهم وصاح قائلًا:

ـ قلت اخرجوا جميعًا، وأنت يا عز الرجال! ما الذي جاء بك؟ ألم أخبرك ألا تأتِ إلا إذا طلبت منك؟

وقفوا صامتين، واعتدل في جلسته بصعوبة، وعندما لاحظ أن ملابسه قد تبدلت، وأن بقدمه ضمادة، سأل بضيق:

ـ مَن بدَّل لي ملابسي؟ ومَن طلب منكم وضع الضمادة؟

وصمت متألمًا، ثُمَّ أضاف بتعب:

ـ اخرجوا جميعًا.

فأمسكت أمها بيدها، وأخرجتها وأحمد بهدوء، فتبعهم سامي والمحامي، ووقفوا أمام الغرفة صامتين، وفي عينيّ كل واحد منهم كلامٌ أشفق على الباقين من سماعه فآثر الصمت، فرفع سامي كتفيه باستسلام، وهو يرى وجه المحامي، وقد تصلب من شدة التوتر، أما أمها وأحمد فغلبهما البكاء، فنفضت ريم عن نفسها تأثير هذه اللحظة المحملة بأتربة اليأس ورائحة الموت، ودفعت باب المكتب، ودخلت إلى عدنان مجددًا، ودخل أحمد معها، فنظر لهما عدنان بضعف حاول إخفائه وراء شراسة واهنة، فجلسا على الكرسي المقابل للأريكة الراقد عليها، وقالت له ريم بصوت خفيض:

ـ أرى أنك قد اتخذت قرارك.

وخنقتها الدموع، فتابعت:

ـ أن تغادر هذه الحياة.

فنظر لدموعها التي انسابت على وجنتيها مع نهاية جملتها، فتابعت:

ـ مع أننا كلنا سنغادرها يومًا ما، كلٌّ ينتظر دوره، لكنك آثرت إنهاء حياتك بيدك، غير أن ثمة نور داخلك يمنعك من الإقدام على الانتحار، وترى في ترك العلاج وسيلة لتحقيق النتيجة نفسها.

زادت سرعة تنفس عدنان، إزاء كشفها أوراقه أمام نفسه، فتابعت بلطف:

ـ النور الذي داخلك يمنعك من إغضاب الله، حبيبك، ذلك النور أظنه من أثر تلك الصلوات التي كنت أراك تصليها لله تحت تلك الشجرة العتيقة في جوف الليل منذ سنوات.

ملأت الحيرة عينيه، وسألها بهمس:

- من أنتِ؟ ومن أين لك بمعرفة كل شيء عني؟

فمسحت دموعها، وداعبها الأمل بسبب مجاراته لها في الحديث، فقالت بصوت مرتجف:

- اعتبرني صدى تلك الصلوات الذي ما يزال يتردد في أرجاء القصر، اعتبرني بريق ذاك النور الذي ملأ عتمة القصر بإيمانك وصلتك بربك، النور الذي لم يخبُ بعد، والذي يرجوك أن تنهض، فانهض، وكن أهلًا لنظر حبيبك إليك.

لمحت ريم الدموع تعبر عينيه، قبل أن ينكس رأسه في صمت، فاهتز وجدانها لرؤية دموعه، وتابعت بيقين:

ـ من المؤلم أن تخونك صحتك، لكن الأكثر إيلامًا أن تخون أنت صحتك، ما دامت لديك فرصة للشفاء لِمَ تهدرها، لِمَ تصر على الانكفاء على وجهك ما دام بإمكانك الوقوف على قدميك؟

صمتت ريم ونظرت إليه بترقب، وقلبها معلق بكلمة أُفلِتت من بين شفتيه:

ـ حسنًا.

فوقفت من الفرحة، وتاهت منها الكلمات لثوانٍ، ثُمَّ سألته بترقب:

ـ حسنًا ماذا؟

فأخذ نفسًا عميقًا، وصمت مطولًا حتى ظنته لن يتكلم، ثم قال بضعف:

ـ أوافق على تلقي العلاج، لكن بشرط.

فقالت بسعادة:

ـ طبعًا ضع الشرط الذي تريد.

ـ أن يتم علاجي هنا، لا أريد أن أذهب إلى أي مستشفى.

فقالت بلهفة:

ـ سأسأل الطبيب عن إمكانية ذلك.

وتوجهت بسرعة نحو الباب، وأمسكت مقبضه، وبتردد التفتت إليه، وقالت ودموع السعادة تملأ وجهها:

ـ شكرًا، شكرًا لك.

وخرجت إليهم مسرعة، يتبعها أحمد، ووجدتهم وقد سمعوا حوارهما، وقد تهللت وجوههم، فسألت سامي عن إمكانية تحقيق شرط عدنان، فأخبرها أن تحقيقه سيكون مكلفًا جدًا، فطلبت منه أن يكتب ما يلزم في قائمة، وأعطتها للمحامي، وشدَّد عليه سامي بضرورة مراعاة السرعة في التنفيذ من أجل إنقاذ عدنان، تركهم المحامي بصمت، وخرج ساهمًا، أما سامي فأخبرها أنه سيستمر في متابعة حالته، ووعدها أن يأتي في اليوم التالي في الموعد نفسه لإعطائه الحقنة ولتغيير الضمادة، وكرر معها تعليمات الدواء والغذاء، وعندما أوصلته ريم إلى الباب، أرادت أن تعطيه أتعاب الزيارة، إلا إنه رفض بشدة، وأخبرها أنها خدمة بسيطة يقدمها إلى جيرانه، بعد ذهابه، قالت لها أمها:

ـ سأعد له الحساء.

بحثوا عن المطبخ، حتى وجدوه، وكان شبه خالٍ إلا من علب السجائر والقهوة والبسكويت، وعلب طعام قطط، فطلبت ريم من أحمد أن يبحث عن قطة قد تكون محبوسة في غرفة من الغرف، فذهب أحمد بحماس، ونظرت لها أمها بحزن، وقالت:

ـ انظري إلى كمية علب السجائر، علينا إعدامها كلها.

وافقتها ريم الرأي بحزن، وقالت:

ـ نعم، لكن بعد أن نسأله أولًا.

- وكما ترين، لا شيء يصلح للطعام.

- سأذهب أنا وأحمد إلى محل البقالة ليتنا نجد به ما يصلح لعمل الحساء.

فقالت أمها على الفور:

ـ ستجدين بعض الأموال في درج ماكينة الخياطة.

شعرت ريم بالذنب لأنها لم تخبر أمها عن بيعها الخاتم، فقالت:

ـ ما يزال يتبقى معي بعض النقود يا أمي.

عاد أحمد وهو يتنفس بسرعة، وقال:

- لم أجد أثرًا لأية قطة في غرف القصر.

وصحب ريم إلى السوق، فأحضرت دجاجة مجمدة، وبعض أكياس الخضروات المجمدة وجبن ولبن وبرتقال وليمون، بينما أصر أحمد على شراء شوكولاتة لعدنان.

أعدت أمها الحساء في وقت قياسي، ودخلت به إلى عدنان، ومن ورائها ريم وأحمد، كان عدنان كما تركوه ممددًا فوق الأريكة، ناظرًا أمامه بشرود، فوضعت أمها الصينية فوق الطاولة المنخفضة بصمت، ومدت ريم يدها نحوه بحبة الدواء، وقالت:

ـ تفضل الدواء.

فالتفت صوبها وهو لا يزال عابس الوجه، وأخذ منها حبة الدواء بصمت، وشرب كوب الماء خلفها وأعطاها الكوب، فترددت قبل أن تقول له:

ـ أعطاني الطبيب تعليمات بخصوص تعقيم الغرفة، من أجل سلامة الجرح، فهل تسمح لي أن أقوم بذلك الآن؟ سأحاول ألا أثير الغبار.

فبدا عليه التردد للحظات، ثُمَّ هز رأسه بالإيجاب دون أن ينظر إليها، فأحضرت المنظفات بنشاط، وعادت إليهم بسرعة، وبدأت في التنظيف بحذر، وسمعت أمها تقول له:

ـ هذا الدواء يؤخذ قبل الطعام، لذا أعددت لك هذا الحساء، تفضل يا بُني.

صمت عدنان، فقالت أمها بطيبة:

ـ أعرف أنك مغتاظ من أن تجد نفسك محاصرًا بالغرباء رغمًا عن إرادتك.

لم يرد عدنان، فأضافت بمرح:

ـ لو كنت مكانك لنفذت تعليمات الطبيب حتى تتعافَ بسرعة، وتتخلص من صحبتنا المزعجة.

فلانت نظرته قليلًا، واعتدل ليأخذ منها الطبق، ولمحته ريم وهو يبتلع الحساء بصعوبة بالغة، يبدو أنه نسي الطعام لاعتماده في التغذية على البسكويت والقهوة فقط.

وعمَّ الصمت المكان، إلى أن قطعته أمها قائلة بلطف:

ـ هل حقًا كنت تصلي في جوف الليل كما قالت ريم؟

فنظر نحو ريم لوهلة، وكأن معرفة اسمها كان يشغله، ثم حوَّل عينيه بعيدًا عنها، ولم يعلق، فقالت أمها:

ـ أهل المحبة بالمحبوب قد شُغِلوا، وفي محبته أرواحهم بذلوا.

من أول الليل قد سارت عزائمهم، وفي خيام حمى المحبوب قد نزلوا.

فنظر لها باهتمام، وقد لاحت في عينيه الدموع، فتابعت:

ـ الله لا يدعو أي شخص لملاقاته في جوف الليل، هناك من يكون مستيقظًا بالفعل، لكنه محرومٌ من هذا الشرف، يبدو أنك إنسان محبوب من خالقك.

فقال بحزن:

ـ لم أعد أقوم الليل، حُرِمت هذا الشرف.

فارتاحت ريم لأنه بدأ يفتح قلبه لأمها التي قالت له بيقين:

ـ سمعت أحد الشيوخ يقول: إذا أردت أن تعرف إن كانت المحنة التي ألمَّت بك من رضا الله أم من سخطه؟ احكم بنفسك .. فإن قادتك المحنة إلى السجود لله فهي من رضا الله، وإن قادتك إلى الصدود عن الله فهي من سخط الله .. لذا، لا تستسلم لفترات الفتور التي تتعاقب على أي إنسان، ولتقم هذه الليلة .. ولو خمس دقائق .. وكل ليلة زد خمس دقائق .. إن كنت متعبًا ولا تقدر على الوقوف في الصلاة، قم الليل بالذكر، بالدعاء، بالمناجاة، وبالتفكر في خلق الله، فكما قال سيدنا علي زين العابدين بن سيدنا الحسين رضي الله عنهما "لكل جارحة من جوارح الإنسان ذكر، فذكر

العين البكاء، وذكر اليد الإنفاق، وذكر الروح الخوف والرجاء، وذكر القلب التسليم والرضا".

فشرد وقد عقد حاجبيه، وبدا على وجهه التأثر، فأنشدت مرة أخرى تقول:

- تمسك بأذيال المحبة، واغتنم ليالٍ بها تحظى بأوقات جمعنا.

وقم في الدجى فالليل ميقات من يُرِد وصال حبيب، فاغتنم فيه وصلنا.

وسِر نحونا، لا تخش في الليل ظلمة، وكن ذاكرًا، فالأنس في طيب ذكرنا.

فأجهش ببكاء اهتز له قلب ريم، فسالت دموعها، واقترب أحمد منه، وأخذ يربت على كتفه في صمت، إلى أن مسح دموعه بأصابعه، وهَمَّ بوضع الحساء على الطاولة، فقالت أم ريم وهي تأخذ منه الطبق، وقد ارتجف صوتها تأثرًا لبكائه:

ـ يبدو أنه لم يعجبك، هل أعد لك شيئًا آخر؟

فقال بصوت متهدج من البكاء:

ـ لا، لقد اكتفيت.

ـ هل تحتاج إلى أيِّ شيءٍ قبل ذهابنا؟

فسألها بقلق ولهفة:

ـ هل ستذهبون؟

فرقَّ قلب ريم له، وهي ترى لهفته، وتنهدت بأسى وهي تتخيل صعوبة وقسوة الليالي التي قضاها بمفرده في هذا القصر البارد، فقالت له أمها لتطمئنه:

ـ طبعًا لا، سنبقى هنا.

فبدت على وجهه الراحة، وأحست ريم بالراحة مثله لقرار أمها الرحيم، وأضافت أمها:

- إذا أردت أي شيء، نادني، أنا خالتك فوزية، وهذه ريم وهذا أحمد، كلنا في خدمتك.

فقال أحمد:

- ارتاحي أنت يا أمي، أنا سأبقى بجواره هنا على الأريكة الأخرى.

تفاجأت ريم من قول أخيها، الذي تابع قائلًا بلطف وهو ينظر لعدنان:

- لقد أحضرت لك شكولاتة، أرجو أن تُشفى قريبًا.

لاح التأثر بعينيه، وأخذها منه شاكرًا، وقال:

- شكرًا، شكرًا لكم جميعا، وأعتذر عن انفعالي عليكم.

فقال أحمد بابتسامة:

- لا تعتذر، أنا أيضًا عندما أتألم أكون سيء الخلق مثلك.

فقالت ريم:

- أحمد!

فاستدرك قائلًا:

- أنا آسف! أقصد أن الألم يخرجني عن شعوري أحيانًا.

فنظرت أمها إليها، وقد أنهت تنظيف الغرفة في وقت قياسي، وأشارت إليها لتخرج، فسألته ريم قبل خروجها:

- هل تسمح لنا بإعدام السجائر الموجودة بالمطبخ؟

فصمت، فقالت له:

- رجاءً.

فهز رأسه بالإيجاب، فبدا على وجهها الارتياح، وخرجت بصمت، وسمعت أمها تقول:

ـ تصبحان على خير.

دخلت ريم إلى المطبخ تسبق أمها، وقامتا بإعدام كل السجائر الموجودة به بحماس، وذهبت أمها للنوم على كرسي أمام غرفة المكتب، أما ريم ففكرت أن تقوم بتنظيف القصر، فبدأت بالصالة الواسعة، فقامت أولًا بنزع الستائر ووضعتهم في الغسالة، وأحضرت السلم الخشبي من غرفة الغسيل، وحملته بحرصٍ حتى لا توقظ أحدًا، واستخدمته في الوصول إلى الثريات والنوافذ حيث قامت بمسحها وتنظيفها بعد أن نزعت خيوط العناكب، ثُمَّ رفعت الملاءات المغطى بها الأثاث وقامت بتلميعه بعناية، وعندما انتهت من مسح الأرضيات بدت روعة الرخام الوردي ولمعته، ثُمَّ أخرجت الستائر النظيفة من المجفف، وقامت بإعادة تعليقها، وأخيرًا، وقفت ريم تتأمل

المكان حولها وقد ظهرت معالمه، فخمة ومتناسقة الألوان، حيث طاولة الطعام الطويلة المحاطة بكراسٍ عملاقة ذات لونٍ زيتوني، وأطقم صالونات فخمة بنفس اللون، كانت النتيجة خاطفة للأنفاس، فشعرت ريم بالرضا، ونسيت المجهود الذي بذلته، فتشجعت وواصلت تنظيف المطبخ والحمام، وأعادت السلم الخشبي إلى غرفة الغسيل، ثُمَّ جلست على أحد الكراسي الموجودة بالغرفة، وأسندت رأسها إلى ظهره وداهمها النعاس من شدة التعب، فلم تشعر إلا بيد أمها الحانية تقول لها بعد ساعات قليلة:

ـ استيقظي يا ريم.

ففتحت عينيها بصعوبة، واحتاجت لثوانٍ لتدرك أين هي، فابتسمت لها أمها وقالت:

ـ اقترب موعد أذان الفجر، صلي صلاة التهجد ولو ركعتان.

ـ حسنًا يا أمي.

دخل أحمد الغرفة، وقال بانبهار:

ـ سلمت يداكِ يا ريم، لقد تغيَّر المكان تمامًا، وأصبح يشبه المتاحف.

الفصل الثالث

(سأكون الجندي الوحيد في جيشك)

في الصباح، أعدت أم ريم فطورًا خفيفًا مكونًا من شطائر الجبن وكوبٍ من الحليب الدافئ، وحملته إلى عدنان، الذي كان مستيقظًا، ناظرًا إلى الحديقة بشرود عبر النافذة الزجاجية المنخفضة المجاورة للأريكة المتمدد فوقها، فوقفت ريم أمام الباب، وحيَّته من بعيد قائلة:

ـ صباح الخير.

فرد بهدوء:

ـ صباح الخير.

وضعت أمها الصينية على الطاولة المنخفضة، لاحظت ريم أشعة الشمس وقد اخترقت شعره البنيّ، وقد بدا لونه متناقضًا مع لون البيجاما البيضاء، الذي انعكس على وجهه، فأحاطه بهالة من الصفاء.

- ريم! ريم!

انتبهت ريم إلى أمها وهي تتحدث إليها، وقد رفعت علبتي الدواء بيديها، وسألتها بصوت مبطن بعدم رضاها عنها حين ضبطتها تتأمل عدنان:

ـ أيهما قبل الفطور وأيهما بعده؟

فردت بارتباك:

ـ العلبة الصغيرة قبله، والأخرى بعده.

عندما لاحظ عدنان وقوف ريم خارج الباب، سألها:

- لماذا تقفين عندك هكذا؟

فردت أمها بصراحة:

ـ ملابسها متربة، وتخاف على جرحك من التلوث.

فاحمر وجه ريم خجلًا، فقال عدنان، وهو ينظر أرضًا:

ـ متوقع، بعد المجهود الذي بذَلَته في تنظيف القصر.

دهشت ريم من قوله، وكذلك أمها التي سألته:

ـ كيف عرفت؟

فأشار إلى أحمد النائم على الأريكة الأخرى، وقال:

ـ لقد أخبرني أحمد بذلك، وقام بتصوير إنجازك بهاتفي المحمول، أنا في غاية الامتنان والحرج، لقد أتعبتِ نفسك.

- لم يكن هناك أي تعب على الإطلاق، لقد تسليت كثيرًا.

فأضاف بامتنان:

- أحمد أيضًا، ظل مستيقظًا بجواري طوال الليل.

ـ الجار للجار يا بني، والآن تفضل، لقد أعددت لك فطورًا خفيفًا، وأنتِ يا ريم، بدلي ملابسك وتعالي.

فاستوقفها عدنان قائلًا:

- لا تذهبي إلى البيت بمفردك.

فانتبهت أمها لذلك، وقالت مستدركة:

- معك حق يا بني، انتظريني إذن بالخارج، سأذهب معك.

فشعرت ريم بسعادة تسري في أوصالها بسبب حرص عدنان على سلامتها، ولاحظت أمها ذلك بعدم ارتياح، أما عدنان فصمت قليلًا، ثم سأل أمها:

- من كتب الرسالة التي ألقيتموها في الحديقة من قبل؟

فردت ريم بإحراج:

- أنا.

فصمت لثوانٍ، ثم قال بتهذيب:

- لقد كُتِبت بخط مميز جدًا.

فاحمر وجهها خجلًا، وردت بهمس:

- شكرًا.

ثم نظرت بعيدًا عنه كما يفعل معها، وأضافت بتلعثم:

- شكرًا لك أيضًا لأنك سمحت لنا باستخدام المياه، كان جميلًا منك أن تساعدنا وأنت لا تعرفنا.

فتردد قليلًا، قبل أن يسألها:

ـ كيف عرفتم بأمر سقوطي؟

فبدا عليها الإحراج، ونظرت إلى أمها، ثُمَّ قالت:

ـ اعتدت أن أراك من نافذة غرفتي كل يوم عند ذهابك للحديقة الخلفية، وعند عودتك منها، وعندما لم تعد في موعدك المعتاد، ذهبنا لنبحث عنك.

فبدت عليه الدهشة من ردها، ثم قال بلطف:

ـ يبدو أنها عادة عندك منذ الصغر.

فسألته بعدم فهم:

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد متابعتك لي من نافذتك، لقد قلتِ بالأمس إنك كنت ترينني في صغرك وأنا أصلي تحت الشجرة.

فاحمر وجهها خجلًا، وقالت بدفاع:

ـ بغير قصد، فقد كنت أخاف من نباح الكلاب في الليل، فكنت أسمعك، وأنت تتلو القرآن في صلاتك تحت الشجرة العتيقة الموجودة تحت نافذتي، فكان يلف الليل ثوب الأمان، وكنت أنام على الفور.

فبدا عليه التأثر، وتردد قليلًا قبل أن يقول لأمها:

- مما علمته من رسالتكم أن خدمة المياه مقطوعة عن بيتكم، لذا وبما إن القصر مليء بالغرف، لمَ لا تنتقلوا للإقامة فيه.

فقاطعته أمها باعتراض:

- كيف هذا؟

فتألم قليلًا، وهو يعتدل في جلسته، فقالت أمها بلطف:

- أعرف أن نيتك طيبة، لكن هذا عرض غير مقبول.

فبدت على وجهه الصدمة لرفضها، ثم فكر قليلًا، وقال:

- إذن افتحي درج المكتب من فضلك يا سيدتي.

فامتثلت أمها لأمره بسرعة، فقال لها:

- بين هذه المجموعة من المفاتيح، يوجد مفتاح البيت الملحق بالقصر، رجاءً انتقلوا إليه، فهو على أطراف القصر بجوار البوابة، وقريب جدًا من بيتكم.

- يا بني هذا...

فقاطعها قائلًا:

- الجار للجار كما قلتِ.

وأغمض عينيه من الألم، فأشفقت أمها عليه فصمتت، وسألته ريم بقلق:

- هل أتصل بالطبيب؟ فأنت تبدو متألمًا.

- لا، إنها وخزة بسيطة في الجرح، تعاودني من وقت لآخر.

وصمت لثوانٍ، ثُمَّ فتح عينيه، وقال:

- الحمد لله، ها هي قد هدأت.

ونظر مجددًا لأمها، وقال برجاء:

- أرجوك يا سيدتي، انتقلوا إلى البيت الملحق، فهو مؤثث وبه المياه والكهرباء.

فقالت أمها شفقة به:

- حسنًا، ارتح أنت قليلًا.

- خذي المفاتيح أولًا.

فأخذتها أمها بصمت، وقالت:

- شكرًا، شكرًا لك، هيا إذن ريم.

ذهبتا أولًا إلى بيت الجد، لإحضار متعلقاتهم منه، ولإغلاق نوافذه وأبوابه، قبل العودة إلى القصر.

كان البيت الملحق نظيفًا بسبب الأبواب والنوافذ الحديثة المصنوعة من الزجاج والألومنيوم محكم الغلق، وكان ذا طرازٍ حديث يختلف عن طراز القصر العريق، كان عبارة عن غرفتين مفتوحتين على بعضهما، يفصل بينهما باب زجاجي كبير في إحداهما سريران كبيران، ودولابًا، وطاولة للزينة بمرآة كبيرة، وفي الغرفة الأخرى القريبة من الباب أريكة كبيرة وأربعة كراسي بلون زيتي، وتليفزيون، وبجوار الباب ردهة صغيرة بها مطبخ وحمام صغيرين لكن مجهزين بأحدث التجهيزات، فتحت أمها الدولاب لتضع متعلقاتهم القليلة بداخله، فوجدته مملوء بالملاءات والمناشف الجديدة، فقالت أمها، وهي تجلس على الأريكة المريحة:

ـ المكان مريح للغاية، لكن ينقصه شيء واحد، ماكينة الخياطة.

فابتسمت ريم، وقالت بمرح:

ـ سأذهب لأحضرها.

فقالت أمها بجدية:

ـ لا يا ريم، اتركيها في مكانها الصحيح، حتى لا ننسى أننا هنا في مهمة مؤقتة، ما إن تُنجَز حتى نعود إلى ما ننتمي إليه.

صمتت ريم، وقد أحست أن أمها تعنيها بما تقوله، ربما لأنها لاحظت سعادتها بالحديث مع عدنان، فقالت أمها بتأكيد:

- ما إن يقف عدنان على قدميه، سنفعل كما فعل سيدنا موسى عليه السلام بعد أن سقى للفتاتين، نتولى إلى الظل، افهمي كلامي يا ريم حتى لا تتعبي نفسك وتتعبيني معك.

وصمتت قليلًا، ثم أضافت:

- أعرف أنك تحبين جلال الدين الرومي، له مقولة جميلة: "أيها المسافر، لا تضع قلبك في أي منزل، وإلا أصبحت مهمومًا عند الرحيل"

صمتت ريم، وقد شعرت بالإحراج مما تلمح له أمها، فهذه أول مرة تتناقش معها في مثل هذه الأمور صراحةً، فقالت لتغير الموضوع:

- سأقوم بكنس الحديقة قبل أن أغسل ملابسي.

فقالت أمها بحزم:

- لا تغيري الموضوع، دعيني أكمل ما أود قوله.

فابتلعت ريم ريقها، وقالت بأدب:

- آسفة على مقاطعتك يا أمي، تفضلي.

فقالت أمها وهي تنظر لعينيها بثبات:

- ما وافقت على البقاء في هذا القصر إلا لأنني لاحظت أن عدنان يغض بصره عنك، فشعرت ببعض الأمان، ألا يجدر بابنتي، الحاملة لآيات الله في قلبها أن تمتثل لأمر الله، وتغض بصرها عنه بدورها؟

فتوردت وجنتاها، وقالت بهمس من تأثير الخجل على صوتها:

- سمعنا وأطعنا.

فنظرت لها أمها مفكرة، ثم ربتت على كتفها وقالت:

- أرجو ذلك.

قامت ريم بكنس الجزء الأمامي من الحديقة بسرعة، وقامت بتجميع الأوراق المتساقطة، في أكياس ووضعتها بجوار السور إلى أن تعرف أين تلقيها، وبينما وقفت تتأمل الحديقة بعين رضا، فوجئت بعدنان متابعًا لعملها من مكانه فوق الأريكة، فشعرت بالإحراج، واكتفت بهذا القدر، وذهبت إلى البيت الملحق، حيث بدلت ملابسها المتسخة، وغسلت وجهها وارتدت جلبابًا منزليًا من المجموعة الأخيرة التي صنعتها أمها، ثُمَّ غسلت الملابس المتسخة، وانتظرت حتى جفَّت، ثُمَّ ارتدتها مرة أخرى، وعندما عادت إلى القصر، أخبرتها أمها أن جرح عدنان عاود إيلامه بشكل كبير، فحزنت ريم من أجله، واتصلت بسامي أكثر من مرة، ليعطي عدنان الحقنة ويغير له الضمادة كما وعد، لكنه لم يرد، ولم يأتِ، فشعرت بالقلق عليه، وذهبت مع أحمد إلى المركز الطبي، فقابلها السكرتير، وأخبرها أن موعد

العمل انتهى، وأن المركز سيغلق مبكرًا لأن سامي سيذهب إلى عرس ابن الحاج رشوان أحد كبار رجالات القرية، فاستأذنته لتتحدث إليه في أمر عاجل قبل ذهابه، فسمح لها بتردد، ولم يسمح لأحمد بالدخول معها، فجلس ينتظرها في صالة الاستقبال، وعندما طرقت الباب وفتحته، كان سامي يجلس على كرسيه خلف المكتب ناظرًا إلى سقف الغرفة بشرود، واعتدل في كرسيه لحظة رؤيتها، وبدا على وجهه التوتر، وسألها بجفاء:

ـ ما الأمر؟ لقد أخبرت السكرتير ألا يُدخل أحدًا عليَّ لأن وقت العمل انتهى.

فتعجبت من حاله، ومن برودة استقباله، وقالت بإحراج:

ـ لقد قال لي هذا، لكنني أخبرته أنها حالة طارئة، لأنك تأخرت علينا، فجئت أذكرك بموعد حقنة السيد عدنان لتعطيها له، ولتغير له الضمادة.

ـ لستُ متفرغًا، ابحثي عن أحد غيري.

فتعجبت من تغيره، وقالت:

ـ لكنك متفرغ بالفعل، فهل هناك سبب آخر؟

فلم يرد، ولمحت هاتفه المحمول أمامه، فدخلت خطوة إلى داخل الغرفة، وقالت:

ـ هاتفك المحمول أمامك أي أنك علمت أنني اتصلت بك ولم ترد، اصدقني القول، ماذا حدث؟

فأخذ نفسًا عميقًا، وصمت، فتابعت:

- بالأمس، كنت معنا كالبطل الخارق، فما الذي غيَّرك اليوم؟

فمسح وجهه بيده بعصبية، وقال:

ـ لقد رآني بعض أهل القرية وأنا أتردد على القصر، وهددوا بمقاطعتي ومقاطعة المركز الطبي إن استمررت في التردد عليه.

فسألته بدهشة:

ـ مقاطعتك؟ لماذا؟

فوضع كلتا يديه على المكتب، وسألها بانفعال:

ـ ألا تعرفين لماذا؟ ألم تكوني تعرفين من يكون عدنان عندما ورطتني في مساعدته؟

فدق قلبها بخوف، وقالت:

ـ نحن لم نزر الفيوم منذ خمسة عشر عامًا كما قلنا لك من قبل، لكني لاحظت أن بعض أهل القرية ينبذون القصر منذ لحظة قدومنا، ولم أعرف السبب.

فقال بصوت أقل حدة:

ـ أنا أيضًا غريب عن القرية، لم أكن أعرف قصته عندما ساعدته.

فسألته بتوتر:

ـ قصته؟ وما قصته؟

فقال لها بلا مقدمات:

ـ أنه قاتل.

انسحب اللون من وجهها وجف حلقها، ثُمَّ سألته بصوت مبحوح:

ـ قاتل! ماذا تقول؟!

فضيَّق عينيه، ودار حول المكتب حتى وقف أمامها، وأضاف بثبات:

ـ قتل أخاه الشقيق وابن عمه.

شعرت ريم بالقشعريرة تسري في سائر جسدها، وتذكرت الشابين الصغيرين بأسى، فمشى سامي خطوتين حتى الجدار الآخر، ثُمَّ التفت ناحيتها، وكان وجهه مشدودًا من العصبية وقال:

ـ أنا لست بطلًا خارقًا كما تقولين، أنا شاب بسيط، غريب عن هذه البلدة، اخترت أن أنفذ مشروعي هنا، باعت أمي مصوغاتها الذهبية حتى أفتتح هذا المركز، ولن أضحي بأحلامي، وأغامر بأموال أمي من أجل هذا الشقي.

ومرَّ من أمامها تاركًا إياها وحيدة يلفها صمت مقبض، رغم أنها لم تستطع تصديق ما قاله عن عدنان، طرق السكرتير الباب، واستأذنها لتغادر حتى يغلق المركز، فمشت بجوار أحمد بخطى آلية، ولم تنجح محاولاته في معرفة ما قاله لها سامي، وطوال الطريق وهي تفكر في أمها: لا يمكن أن تخفي عنها ما سمعته من سامي، رغم خوفها من ردة فعلها، ومن احتمال أن تترك عدنان كما فعل أهل القرية، فدخلت القصر بأنفاس متلاحقة، ثم وقفت بتردد على باب الغرفة الموجود بها عدنان، بينما دخل أحمد، وجلس قبالته وهو

نائم، وإذا بأمها قادمة من المطبخ تحمل صينية عليها كوب المياه، وعلبة الدواء، وسألتها:

ـ لمَ تقفين هكذا؟ أين سامي؟

وعندما لم ترد، تجاوزتها ودخلت إلى عدنان، ونادته برفق ليستيقظ:

ـ عدنان! عدنان!

ففتح عينيه، فقالت بهدوء:

– موعد الدواء يا بُني، على مهلك.

نظرت له ريم بصمت، وقد تزايدت دقات قلبها، وهي تراه يمد يده ليأخذ الدواء من أمها بضعف، وتساءلت في سرها: هل يمكن لهذه اليد التي امتدت بالخير لأطفال لا يعرفهم لرسم البسمة على وجوههم، هل يمكن أن تمتد بالشر لتنتزع روح أقرب الناس إليه؟ هل يمكن لقلبه الذي سجد لله في جوف الليل بعيدًا عن أعين الناس أن يتجرد من إنسانيته ويعصي ربه؟ هل يمكن لروحه الرحيمة التي ما نسيت حيوانات ضالة ضعيفة، هل يمكن أن تقسو على أولى الناس برحمته؟ استفاقت من تساؤلاتها على صوت أمها:

ـ ما الأمر يا ابنتي؟

فأجابت ريم على كل تلك الأسئلة بكلمة واحدة:

ـ مستحيل!

فنظر لها عدنان، وهو مقطب الجبين، وسألتها أمها:

ـ ما المستحيل؟

أخذت ريم نفسًا عميقًا، وقد اتخذت قرارها، وقالت لنفسها بتصميم: سأكون الجندي الوحيد في جيشه مهما تكبدت من خسائر، وتقدمت منه بثبات، وسألته باهتمام:

ـ بماذا تشعر الآن؟

فقال متألمًا:

ـ الوخزة التي كنت أشعر بها صباحًا أصبحت قوية جدًا، لا تهدأ.

فرق قلبها له، وصمتت فسألتها أمها بدهشة:

ـ أين سامي؟ لِمَ لمْ يأتِ معك؟

فقال أحمد، وهو يعدل وضع الوسادة خلف عدنان:

ـ سامي!

فقاطعته ريم حتى لا يُكمِل:

- سأذهب إليه وأحضره، لن أتأخر.

وجرت من الغرفة غير واعية لنداءات أمها لها، ورغم بعد المسافة إلا أن أملها في التأثير على سامي كان يحملها بجناحيه، فسألت أحد المارة عن المكان المقام فيه العرس، وسارت إلى حيث أشار، إلى أن بدت لها الأضواء متلألئة على البعد، وعندما وصلت إلى الباب، ترددت قبل الدخول إلى عرسٍ ليست

مدعوة لحضوره، كادت طبيعتها الخجولة أن تثبط من عزمها، لولا أن تذكرت نظرات عدنان المتألمة، فتشجعت ورددت دعاء

"اللّٰهُمَّ سخر لي قلب وجوارح من أحوجتني إليه"

ودخلت إلى المكان المخصص للرجال، وسط ذهول الحاضرين، وبحثت بعينيها عن سامي حتى وجدته، ثم وقفت أمامه غير آبهة بنظرات الحضور التي توجهت إليها، وقالت له برجاء:

ـ قم معي لتغير له الضمادة، ولتعطيه الحقنة.

فرفع حاجبيه بدهشة، وقال بصوتٍ خفيضٍ يقطر انفعالًا:

- أنا لا أصدق، أما زلتِ مصرة على مساعدته بعد كل ما قلته لك؟!

فامتلأت عيناها بالدموع، وهي تقول بعجز:

ـ أنا لا أعرف طبيبًا غيرك هنا، قم باللازم، ثم عُد إلى العرس مجددًا، لن تتعطل لأكثر من دقائق.

فأصبح وجهه مشدودًا من التوتر، ثُمَّ نظر أرضًا، فقالت بألم:

ـ تعلم جيدًا أن الجرح به التهاب، ولا يحتمل أي إهمال.

فبدا على وجهه صدى الصراع الذي يعانيه بداخله، وأمام صمته وإصرارها، تقدم منهما رجل بشوش الوجه، مريح الملامح، يرتدي جلبابًا فوقه عباءة فخمة، ونقل بصره بين ريم وسامي، ولاحظ التوتر بينهما، فعرَّفها بنفسه:

ـ أنا الحاج رشوان والد العريس، مرحبًا بك، تفضلي إلى المكان المخصص للسيدات.

فقاطعته قائلة بتعب:

ـ مبارك يا سيدي، ولكني هنا طلبًا للطبيب، ليغير الضمادة على جرح أحد الأشخاص.

فقال الرجل بقلق:

ـ طبعًا ، لكن جرح مَن؟ عمن تتحدثين؟

فردت بثبات:

ـ أتحدث عن السيد عدنان الحسيني.

وكما توقعت، سألها الرجل وبعض الموجودين في وقت واحد:

ـ مَن؟!

فردت بانفعال:

ـ حضرتك سمعتني، وأنتم سمعتموني جيدًا، الطبيب يتقاعس عن القيام بدوره خوفًا منكم، يتخلى عن مريض في أمسّ الحاجة إليه من أجل إرضائكم، يحنث بالقسم الذي أقسمه، خشية إغضابكم.

تدخل أحد الحاضرين قائلًا:

ـ من تدافعين عنه لا يستحق إلا الموت.

فأجفلت من قسوة تعبيره، وقال آخر بانفعال:

ـ قتل أخاه وابن عمه، طمعًا في ميراثهما، لذا لا نريده هنا وسط ديارنا.

وقال آخر:

ـ جمع ثروته من الاتجار في المخدرات، لذا لا نريده وسط أبنائنا حتى لا يفسدهم.

وأضاف الحاج رشوان، وقد دمعت عيناه:

ـ فطر قلب زوجة عمه على ابنها الوحيد.

رغم تعدد الاتهامات التي حاصروها بها، إلا أنهم لم ينجحوا في التأثير على موقفها الداعم لعدنان، وقالت بألم:

- لكنه مريض، هل من الشهامة في شيء أن تَنْصبوا له محكمة، وتُنَصِّبوا أنفسكم قضاة وجلادين وهو مريض!

نكسوا رؤوسهم ولم يردوا، فوجَّهت حديثها مجددًا لسامي، وسألته:

ـ هل تقوم بأخذ تعهد من كل مريض بأنه حسن السير والسلوك قبل بدء علاجه؟

لم يرد عليها، فأضافت بانفعال:

ـ السجن نفسه، ألا يوجد به مشفى؟ ألا يعمل به أطباء مثلك وربما أساتذتك؟ أم أن من يمرض هناك يتركوه يتألم حتى الموت؟

صمتوا جميعًا، فتابعت وهي تنقل نظراتها بينهم في يأس:

ـ ومن أدراكم بصحة ما تقولونه عنه؟ هل حضرتم التحقيق معه؟ هل سمعتم دفاعه؟ الله أعلم بما تنسبونه إليه، وإن كان مذنبًا أم بريئًا؟ حتى وإن كان مذنبًا، من أدراكم أنه ندم لدرجة أنه رافض للحياة، ويريد أن

يموت وحيدًا من شدة الندم؟ من أدراكم أنه قد يكون تاب إلى الله وقَبِل توبته، وقد يكون الآن عنده أقرب من أتقى رجل منكم؟

تدخلت أمها قائلة:

ـ صح لسانك يا ابنتي.

التفتت ريم بدهشة لأمها، ولم تكن تعلم أنها قامت بتتبعها، فشعرت برغبة في رمي نفسها بين أحضانها هربًا من قسوة أهل القرية، فنظرت أمها نحو سامي بخيبة أمل، وقالت لريم:

ـ هيا بنا يا ابنتي، لقد أسمعتِ لو ناديتِ حيًّا، ولكن لا حياة لمن تنادي.

فخرجتا معًا بصمت، وما إن ابتعدتا قليلًا، حتى سألتها أمها:

ـ لماذا خبأتِ عني هذا الأمر؟

ـ لقد خبأته عن أحمد، لكن كنت أنوي إخبارك.

تنهدت أمها، فسألتها ريم بترقب:

- أرجوك يا أمي، فكري في عدنان بقلبك لا بأذنيكِ، الرجل يحتاجنا، لا تجعلي هذه الاتهامات تؤثر على تعاطفك معه.

تنهدت أمها وقالت:

ـ طبعًا لن نتركه دون مساعدة.

وصمتت قليلًا ثم أضافت:

- أنا فخورةٌ بك يا ريم، فأنتِ رحيمة وتقية وعادلة.

ابتسمت ريم بأسى، وقد أراحها رد أمها بعدم التخلي عن عدنان، وعادتا إلى البيت صامتتين، فقابلهما أحمد بلهفة:

- لقد تأخرتما، وعدنان يتألم بشدة.

كان عدنان مغمضًا عينيه، وفتحهما لحظة دخولهم الغرفة، واعتدل بصعوبة، وعندما لاحظ وجهها المشدود من التوتر وهي تحاول ادخال القفازات المطاطية في كفيها بصعوبة، سألها ووجهه متعرقًا من شدة الألم:

ـ ماذا تفعلين؟

ـ سأنظف لك الجرح بنفسي.

ونظرت إلى الضمادة بقدمه للحظات، وشعرت بالتردد من أن تقترب منها، فقد خافت أن تضره إن قامت بنزعها دون تخصص، فاهتزت يداها، وأغمضت عينيها بعجز، ثُمَّ وضعت وجهها بين كفيها وبكت بمرارة، فتأثر عدنان لبكائها وسألها بلطف:

ـ ما الأمر؟ هل رفض الطبيب المجيء معكما؟

فرفعت وجهها، ولم تعرف بماذا تجبه، فقالت أمها حتى لا تجرحه:

ـ الطبيب، لم نجده بالمركز، أقصد وجدناه غير متفرغ...

فسمعوا صوت سامي يقول:

ـ لكنني تفرغت الآن.

الفصل الرابع

(طرقات على القلب)

نظرت ريم إلى سامي الواقف عند باب الغرفة، وراقبته بسعادة من بين دموعها، وهو يتقدم نحو عدنان مقطبًا جبينه، وسألها وهو يفتح حقيبته دون أن ينظر لها:

ـ أين الحقنة؟

فمسحت دموعها، وذهبت بسرعة إلى المطبخ، وأحضرتها من الثلاجة، وناولتها له، ووجهها ينبض بالسعادة، فقال بجدية:

ـ أعدي العشاء للسيد عدنان.

فقال عدنان بضعف:

ـ لا أريد أي طعام.

فرد عليه باقتضاب دون أن ينظر إليه:

ـ تركك للطعام سيؤثر على جهازك المناعي، واستجابة الجرح للعلاج تعتمد على نظام تغذية متوازن، المسألة جد خطيرة.

أخذ أحمد صينية العشاء من أمه، وأدخلها إلى عدنان، وعندما خرج سامي من عنده منكس الرأس، سألته ريم بعتاب:

ـ ما الذي غيَّر رأيك؟

ـ ضميري، لم أكن لأسامح نفسي أبدًا إن سقطت بهذا المستنقع.

فابتسمت أمها، وقالت بهمس:

ـ اعلم يا بُني أن رزقك على الله، لا بمهارتك، ولا بحب الناس لك، بل هي عطايا من الله يمكن أن يستردها منك في لحظة، لذا لا تعتمد على رأي الناس لأنه متغير، أنت لم ترَ كيف كانوا يرفعون عدنان وقت قوته، والآن وضعوه وقت ضعفه، لذا كن مع الله، افعل ما يرضيه، وإن أسخط الناس، ولا تفعل ما يسخطه لإرضاء الناس.

فأيَّدها قائلًا:

ـ صدقتِ يا خالة، وشكرًا لكما، أنتما شخصيتان استثنائيتان.

وصمت قليلًا، ثم قال لريم:

- من فضلك اتصلي بالمحامي، واسأليه عن التجهيزات، لقد أخذ وقتًا أطول من اللازم.

بعد أن أنهت ريم المكالمة مع المحامي، قالت لهم بسعادة:

- سيأتي غدًا صباحًا، ومعه التجهيزات والممرض.

فقال سامي بحماس:

- حسنًا، علينا تجهيز وتعقيم غرفة مناسبة له، كما أننا سنحتاج غرفة أخرى للممرض تكون قريبة منها.

قالت أمها:

- توجد غرفة متصلة بغرفته، يفصل بينهما باب، فهل تصلح لتكون غرفة للممرض؟

- ممتاز، هل تستطيعان تجهيز الغرفتين قبل الغد؟

فقالت ريم بحماس:

- طبعًا، الليلة إن أردت.

- والآن سأخبركما كيفية تعقيمها.

في اليوم التالي، جاءت سيارة كبيرة محملة بالأجهزة الطبية والفنيين المختصين بتركيبها، وجاء سامي للإشراف عليهم بنفسه، ونقلوا عدنان إلى الغرفة المعقمة، ثم حضر المحامي ومعه الممرض، فقابلهما سامي ليعطي تعليماته للممرض، بعد قليل مر المحامي على ريم وأمها في المطبخ قبل ذهابه، وقال وهو يخرج ظرفًا من جيبه:

ـ هذا مقابل ثمن الدواء والمشتريات التي قمتم بشرائها خلال الأيام الماضية.

فقالت أم ريم على الفور:

ـ نحن لا نريد مقابل.

ـ أنا أنفذ تعليمات عدنان، لقد توقع أنكم قمتم بدفع مصاريف كل شيء، لأنه لا يحتفظ بأية نقود بالقصر، لذا طلب مني محاسبتكم.

ـ ما قدمناه له كان هدية بسيطة لجارنا.

- الطبيب أيضًا رفض أخذ أتعابه، أنتم تُصَعِّبون عليَّ الأمر بهذا الشكل، لقد أردت أن أفاتحك في أمر،

وتردد قليلًا ثم صمت، فقالت أم ريم:

- لا داعي للحرج، تكلم.

- لقد أردت أكثر من مرة أن أعين مديرة للقصر، لكن عدنان كان يرفض، لذا عندما استجاب للتعاون معكما، أطمع أن توافقا على العمل في إدارة القصر.

ـ لا معرفة لنا بإدارة القصور، فأنا خياطة وابنتي مدرسة.

ـ لكنكما تقومان بدور رائع، لا أريد منكما أكثر مما تفعلانه، لكن سأدفع لكما الأجر الذي كنت سأدفعه لمديرة القصر.

ـ سنساعده بإذن الله حتى يتعافَ، لكن مسألة الأجر مرفوضة تمامًا.

- يا سيدتي، لا أريد استغلالكما...

- لا تتعب نفسك، هذا شرطنا الوحيد.

فتنهد بعمق، وأمام إصرارها رفع كتفيه بتسليم، وقال:

ـ كما تشائين إذن، لكن على الأقل خذي هذا المبلغ لشراء لوازم القصر.

- احتفظ بالنقود معك، وإن احتجنا لأي شيء سنتصل بك.

- لكن عدنان سيحتاج لنظام غذائي معين.
- تواصل مع الطبيب، وقم بنفسك بشراء ما يلزم له.

فوضع الظرف في جيبه، وقال بابتسامة:

- حفظكما الله، أنتما من النعم العظمى التي أنعم الله بها على عدنان.

بعد قليل جاءت معتزة لزيارة ريم، فجلست معها على مقعد رخامي بالحديقة، وكلها فضول لمعرفة سبب الزيارة، وابتدأت معتزة الكلام بتردد:

ـ لقد رأيناكِ من شرفة بيت الحاج رشوان، حيث كنا مدعوين وأهل القرية كلهم تقريبًا لحضور عرس ابنه، فسمعنا ما دار بينك وبين الطبيب سامي وأهل القرية، تمنيت أن أكون مثلك، شُجاعة لا أخشى في الحق لومة لائم.

وصمتت قليلًا، ثُمَّ أضافت:

ـ لقد شعرت بالخجل من نفسي، فقد كنت قاسية في حكمي على السيد عدنان مثلهم، لم أكن أعلم إنه مريض، ويبدو أن الطبيب سامي تأثر أيضًا، فقد غادر العرس بعدكما ولم يمنعه أحد، فقد خيَّم الصمت على الجميع بعد ذهابكما.

ـ السلام عليكم.

التفتت ريم إلى سامي، وردت عليه سلامه، فنظر إلى معتزة، وقد احمر وجهها خجلًا لأنها كانت تتحدث عنه، وقال:

ـ سمعت اسمي وسط حديثكما.

فقالت ريم بمرح:

ـ كنا نتحدث عنك بالخير.

فقال موجهًا حديثه لمعتزة:

ـ أعتقد إنني رأيتك من قبل.

فتوردت وجنتاها من الخجل، فسألها:

ـ في محل الجرائد؟

- نعم.

فتدخلت ريم، قائلة:

ـ إنها معتزة أخت حسين صاحب محل الجرائد، وصديقة طفولتي.

فتهلل وجهه، وقال بأدب:

ـ تشرفت بمعرفتك.

فأخفضت رأسها في حياء، وقالت:

- الشرف لي.

فوجه سامي كلامه إلى ريم:

ـ أنا مضطر إلى الذهاب الآن، لقد أعطيت تعليماتي للممرض، سيبقى عدنان بلا أي زيارات لعدة أيام من أجل دواعي التعقيم، الممرض وحده المسموح له بالتردد عليه، هذا أفضل لسلامة الجرح.

شعرت ريم بحزن إزاء هذا الخبر، لكنها غلفت صوتها بالعقلانية، وهي تقول:

ـ طبعًا سيكون ذلك أفضل له.

ـ وأنت يا ريم تابعي مع خالتي فوزية أمر تغذيته، فهو نحيل جدًا، لقد كتبت لكما ملاحظات التغذية، وأعطيتها لأحمد.

فهزت رأسها بالإيجاب، فقال:

ـ وأنا سأمر عليه كل يوم صباحًا قبل موعد المركز.

بعد ذهابه، نظرت ريم بحزن إلى شرفة غرفة عدنان على البعد، أخرجها من أفكارها صوت معتزة وهي تشير نحو الأكياس بجوار سور القصر:

ـ ما هذه الأكياس يا ريم؟

ـ لقد قمت بكنس أوراق الأشجار المتساقطة، وجمعتها فيها، لكن لم أعرف أين ألقيها؟

ـ لا تقلقي سأطلب من صبحي جارنا أن يمر عليك لأخذها غدًا.

ـ ألن يتضايق؟

ـ لماذا يتضايق؟ فهو يعمل في مجلس القرية؛ سائق عربة جمع القمامة، سأطلب منه أن يمر على القصر كل صباح، والآن سأساعدك في نقلها أمام الباب الخارجي.

ـ لا، فأنتِ ضيفتي.

ـ بل سأنقلها معك، وبدءًا من الغد سأساعدك في تنظيف باقي الحديقة، المكان كبير عليك، وأنا أريد تقديم المساعدة.

ـ وماذا عن أخويك؟ ألن يعترضا على ذلك؟

ـ نعم لن يعترضا، لقد تأثرنا جميعًا بما حدث في العرس، وسأستشير عُمر كذلك بخصوص إعادة تشجير الحديقة.

في اليوم التالي أرسل المحامي، سيارة محملة بالخضروات والفواكه واللحوم والمؤن المختلفة للقصر، وكانت ريم تتحسس أخبار عدنان من سامي، ورغم ذلك كانت تشعر بشعور لا تفهمه من الفراغ، فكانت تشغل نفسها بالعمل المتواصل في الحديقة، وعندما ذهبت لتشتري الشتلات، قام عُمر بحملهم عنها إلى القصر وتفقد حال الحديقة، ثم أخبرها ببعض التعليمات الخاصة بالتسميد وبتقليب الأرض، وعندما لاحظ كبر الحديقة عرض عليها أن يتطوع هو وحسين بالمساعدة مع معتزة كلما سمحت لهما الظروف.

وبينما كانت ريم تتفقد الجزء الجنوبي من الحديقة لتقوم بتنظيفه، وجدت أطباقًا بلاستيكية كثيرة على الأرض، ولمحت بعض القطط بجوار السور، فابتسمت، وقد عرفت أخيرًا سبب توجه عدنان للجهة الجنوبية كل يوم، كان يطعم القطط كعادته القديمة، فقامت بغسل الأطباق جيدًا، وذهبت إلى المطبخ لتأخذ علب طعام القطط، فقابلت أحمد في المطبخ، وقد أعاد

الصينية التي يضعها الممرض أمام الغرفة بعد انتهاء عدنان من تناول طعامه، فقالت أمها بحزن:

- لم يأكل إلا القليل، مثل الأيام الماضية.

فتنهدت ريم، وقالت لأمها:

- على الأقل من قبل كنت تضغطين عليه فيأكل حياءً منك.

فقالت أمها بحزن:

- أما الآن ما باليد حيلة.

فكرت ريم قليلًا، ثم قالت بحماس:

- عندما قمت بتنظيف غرفة عدنان لاحظت أن شرفتها متصلة بشرفة غرفة الممرض.

فسألتها أمها بعدم فهم:

- فيم تفكرين؟

- أفكر أن نصل إلى شرفة عدنان من خلال غرفة الممرض، ومن هناك نراه عبر الزجاج، وتتحدثين إليه عبر الهاتف، وتضغطين عليه ليتناول طعامه كما كنت تفعلين.

فقالت أمها بقلق:

- لكن، قد يضر هذا بعملية التعقيم؟

- لنسأل الممرض إذًا.

اتصل أحمد بالممرض وسأله، ومن ردوده فهمت ريم أنه وافق، فوقفت متحمسة وتهلل وجه أمها من الفرحة، وقال أحمد بابتسامة بعد أن أنهى المكالمة:

- قال: لا مشكلة في ذلك، وعدنان الآن مستيقظ ، هيا بنا.

دخلوا غرفة الممرض تباعًا، ومنها إلى شرفة عدنان، فأمسكت أمها بيدها، وقالت لأحمد:

- اظهر أنت أمامه أولًا يا أحمد، ليعتدل في جلسته.

فاقترب أحمد من زجاج الشرفة، وطرقه بحذر، فأحست ريم بوقع هذه الطرقات على قلبها، وكأنها أفاقته من سباته ليعزف لحنًا جديدًا لم يعزفه من قبل، ولوَّح بيده لعدنان فرِحًا، ثم اتصل بهاتفه المحمول، وقال له بابتسامة:

- السلام عليكم يا أخي، لديك زائرتان.

فاعتدل عدنان، وقال بلهفة:

- مرحبًا.

وقرب أحمد منهما الهاتف المحمول، بعد أن فَعَّل خاصية مكبر الصوت، فقالتا له:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فبدت الراحة في نبرات صوته، وهو يرد:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وسألته أمهما بسعادة لرؤيته:

ـ كيف حالك اليوم يا بُني؟

فتنهد بارتياح، وقال:

ـ الحمد لله، ما هذه الزيارة الجميلة غير المتوقعة؟

فقال أحمد بسعادة:

ـ كانت هذه فكرة ريم.

ابتسم عدنان، وقال من بين دموعه:

- لقد اشتقت إليكم كثيرًا.

فارتبكت ريم من رده، وترددت قليلًا فقد كانت على وشك الرد بصدق: ونحن أكثر، غير أنها قالت عوضًا عن ذلك:

- هناك من اشتاق إليك أيضًا.

فسألها باهتمام:

- من؟

فقالت بمرح:

- قططك.

فاتسعت ابتسامته، فقالت:

- لقد رأيت الأطباق الفارغة الخاصة بهم، وسأقوم بإطعامهم يوميًا إلى أن تقوم أنت بذلك إن شاء الله.

ـ إن شاء الله، لكن أرجو أن تتحلي بالحذر، إذ يوجد هناك جزء مدبب، وصَدِئ في السور، كان ذلك سبب إصابتي، فقد سقطت عليه وأنا أساعد إحدى القطط الصغيرة على النزول من فوق السور.

ـ لا تقلق سأكون حذرة، لكن أود أن أعرف لماذا كنت تذهب إلى الجزء الجنوبي لإطعامهم رغم اشتداد التعب عليك؟ لماذا لم تكن تضع لهم الطعام أمام باب القصر الرئيسي كما كنت تفعل سابقًا؟

فتنهد بحزن، وقال بتردد:

ـ لقد تعرضت لبعض المضايقات من بعض أهالي القرية.

حزنت ريم من قوله، حتى أن الدموع لمعت في عينيها، وقالت أمها لتغير الموضوع عندما لاحظت انزعاج عدنان:

ـ يبدو أنك لا تحب وصفات سامي التي يطلب مني إعدادها لك.

- أنا لا رغبة لي في الطعام، على الإطلاق.

قالت أمها برجاء:

- دعك من وصفاته، وأخبرني ماذا تحب أن تأكل؟

ـ لا شيء.

حزنت ريم من أجله، ثم قالت بحماس:

ـ في الواقع أنا لست بطباخة ماهرة، لكن الطبق الوحيد الذي أجيد طبخه هو المكرونة.

فلم يرد عدنان، بينما أيَّدَها أحمد قائلًا:

- وأنا أشهد لها بذلك، ريم تعد مكرونة رائعة.

ـ أجيد طبخ المكرونة بكافة أشكالها، بالصلصة البيضاء، وبالصلصة الحمراء، وبالزبادي، إن شئتَ أن تتذوق أحدهم صدقني لن تندم.

عندما لم يتجاوب معها صمتت بإحراج، وعندما شعر بإحراجها قال بتسليم:

ـ أنا موافق إذن.

فنظرت له، منتظرة تفسيره فقال:

ـ على المكرونة.

فقالت بسعادة:

ـ إذن، سأعدها لك فورًا.

وتوجهت بحماس إلى المطبخ، وشحذت كل مهاراتها في الطبخ، فأعدت المكرونة بالخضروات واللحم المفروم، حتى تكون مغذية وفقًا لتعليمات سامي، وزينت الطبق بعناية، ثم طرقت باب غرفته، ففتح لها الممرض، فأعطته طبقي مكرونة لعدنان وله، وكذلك أعطت أمها وأخيها، وقالت لعدنان عبر الهاتف المحمول:

- فكرت أن نتناول غداءنا معك، لنفتح شهيتك، إن سمحت لنا؟

فابتسم وقال:

- سيكون هذا من دواعي سروري.

قربت ريم من أمها كرسيًا خشبيًا فجلست عليه، بينما جلست أرضًا، بجوار أحمد، قال لها عدنان بتهذيب:

- المكرونة تستحق العلامة الكاملة.

أعجبت ريم بتعبيره، وراقبته بسعادة وهو يتناول المكرونة، وأيقنت إنه بالفعل راقٍ في كل شيء، وإن تعارض ذلك مع مظهره الأشعث، إلا أنه ينطبق عليه وصف الرافعي لحافظ إبراهيم حين قال فيه

(وكان حَزينًا، ولكِنَّهُ أَنيسُ الطَّلعَة، وكان بائِسًا، ولكنّهُ سليم الصَّدر، وكان في ضِيقٍ، ولكِنَّهُ واسِعُ الخُلُق)

عندما أنهى تناول طبقه كاملًا، كادت ريم أن تطير فرحًا، وكأنها تسلمت لتوها أرفع الأوسمة، حتى أن تعبيرات وجه أمها المندهشة تطابقت مع تعبيرات وجه أحمد وهما يراقبان فرحتها التي بدت لهما مبالغًا فيها، واستأذنت أمها لتقوم بإعداد المكرونة لعدنان للغداء كل يوم، فوافقت.

توالت الأيام، وريم وأمها وأخوها يشاركون عدنان طعامه ليشجعوه على إنهاء وجبته، وبالفعل استعاد بعض وزنه في فترة قصيرة، كانت ريم تتحدث في مواضيع شتى أثناء تناوله الطعام، ليركز مع الكلام ويأكل دون أن يشعر، ونجحت خطتها في ذلك، وذات يوم قالت له بحماس:

ـ مكرونة اليوم هي الأجمل من بين كل ما سبق، مكرونة بالبشاميل وكل مكوناتها فيومية بجدارة، البيض بلدي والزبد فلاحي واللبن طبيعي.

ابتسم عدنان، وقال بحماس:

ـ تبدو شهية فعلًا.

فنظرت ريم لطبقها وبدأت تأكل بفخر، وبعد قليل سألته:

- هل أعجبتك؟

ـ تستحق العلامة الكاملة.

فقالت ببراءة:

- ما سألتك إلا لأسمع منك هذا التعبير، لقد أحببته.

فعاود نظره إلى الطبق، وهو يبتسم، فأحست ريم بالسعادة، فأبعدت نظرها عنه إلى أمها، فوجدتها ناظرة لها بعدم رضا، فشعرت بالإحراج، ونظرت إلى طبقها مجددًا، وآثرت الصمت، وكأن عدنان قد اعتاد على ثرثرتهم أثناء تناوله للطعام، فعندما طال صمتهم، سألهم:

- لماذا انتقلتم إلى الفيوم؟

فردت أمهما بحزن:

- انهار البيت الذي كنا نسكن فيه.

ـ هل تأذى أحد من أسرتكم؟

ـ الحمد لله، لم يتأذَ أحد منا، فقد كنا في زيارة سيدنا الحسين رضي الله عنه، وعندما عدنا، وكنا على أطراف الشارع، كانت لحظة انهياره، فانهار أمام أعيننا.

فبدا على وجه عدنان الأسى، وسأل بقلق:

ـ وباقي السكان؟ هل كان هناك ضحايا؟

فقالت أمها على الفور:

ـ لا، ولله الحمد، لأنهم استجابوا لقرار المالك، وقاموا بإخلاء الشقق في بداية الشهر، لم يتبقَ غير شقتنا التي لم يتم إخلاؤها، لقد تأخرنا والنتيجة أننا خسرنا كل شيء تحت الأنقاض، وليس لنا أقارب في القاهرة سوى عم أحمد وريم وكان ولا يزال في العمرة مع زوجته، أما أختيّ متزوجتان في الأقصر.

فقال أحمد بحماس:

- اقترحت على أمي الذهاب إلى الأقصر عند خالتيّ سهير وفايزة، فأنا أحب الأقصر، وأحب أهلها، خاصة زوجي خالتيّ، وهما شقيقان، الشيخ عبد التواب والشيخ عبد المنصف.

وقالت أمهما:

- رغم كرم زوجي أختيّ إلا أنني لم أرغب في أن أُحمِلهما همَّنا، خاصةً وقد فقدنا أموالنا، وكل ما نملك تحت الأنقاض، فلم يتبقَ أمامنا سوى بيت أبي هذا.

صمت عدنان وقد بدا على وجهه تعبير الرضا، قبل أن يقول:

- "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ" صدق الله العظيم، الحمد لله الذي جاء بكم إليَّ.

فسعدت ريم من تعبيره، وكل خلاياها تردد خلفه: الحمد لله ألف مرة، وأضافت أمها:

ـ لقد ورثت هذا البيت من أبي، ورغم ضيقه إلا أنني أحبه، لذا اخترته وقت توزيع الميراث، وتركت قطعة الأرض لأختيّ.

صمت عدنان مطولًا، وقد تبدل وجهه، وقال بحزن:

ـ هكذا فعلت أمي، اختارت القصر، واختارت خالتي الأرض.

وعبس وجهه وشرد بعيدًا، حتى أحست ريم أنه لم يعد يشعر بوجودهم.

قاطعهم دخول سامي من باب غرفة الممرض، وقد وضع كمامة طبية على فمه وأنفه، ووضع بقدميه خفين بلاستيكيين بالإضافة إلى القفازات المطاطية في يديه، وتفاجأ من الصحبة المحيطة بعدنان، من وراء الزجاج، فابتسم لهم بتقدير، فأعطاه عدنان الهاتف المحمول بهدوء، دون أن ينهي الحديث مع ريم، فأدهشها تصرفه، وقال لها سامي ممازحًا:

ـ مرحبًا، أنتم هنا؟ لقد بحثت عنكم بالدور الأرضي، كيف حالكم؟

فلم ترد ريم، إذ نظرت إلى عدنان الذي حوَّل نظره عنهم، وقد بدا على وجهه الضيق، فردت أمها بسعادة:

ـ الحمد لله يا بُني.

- أنا أغبط عدنان على هذه الصحبة، بالإضافة إلى أني جائع بالفعل.

- سنحضر لك طبقك، مُر علينا في المطبخ.

مرَّ سامي عليهم بعد قليل، وبينما كان يتناول المكرونة بشهية، سألته أم ريم عن عدنان، فبشرهم بشفاء الجرح، لذا طلب من ريم الاتصال بالمحامي ليوفر أخصائي العلاج الطبيعي، كما اتفق معه من قبل.

في صباح اليوم التالي، جاء المحامي ومعه أخصائي العلاج الطبيعي، وقبل ذهابه مرَّ على ريم وأمها في الحديقة وقال:

- لقد انتهى عمل الممرض، وسيعود معي إلى القاهرة، وبالنسبة لأخصائي العلاج الطبيعي، لن يقيم معكم في القصر وفقًا لتعليمات عدنان المشددة، لذا اتفقت معه أن يأتي يوميًا، ويذهب بعد انتهاء الجلسة.

تنهدت ريم بارتياح، لاهتمام عدنان وحرصه عليهم، فتابع المحامي بسعادة:

- على فكرة لقد سمح سامي بزيارة عدنان.

قالت ريم بسعادة:

ـ حقًا؟!

ـ نعم، لم يعد هناك حاجة لبقائه في غرفة معقمة، لذا يمكنكم زيارته في الصباح.

ثم ركب سيارته ومعه الممرض ولوحا لهم، ورحلا.

الفصل الخامس

(أنين امرأة على مسامع القلب)

في الصباح، قطفت ريم وردة حمراء، وحملتها إلى عدنان مع الفطور، ودخلت أمها قبلها، وقالت له بسعادة:

ـ السلام عليكم يا بُني.

فاعتدل في جلسته، ورد بابتسامة بدت في عينيه:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فقالت ريم بهدوء:

ـ حمدًا لله على سلامتك.

وتقدمت منه بخجل، وأعطته الوردة، فاستنار وجهه بالفرح، وقال:

ـ شكرًا لكِ، تفضلوا بالجلوس.

فجلسوا، وقال أحمد بحماس:

- لقد قبضنا المعاش بالأمس، لذا اشترينا لك مصحفًا.

فأخذه من يده وقبَّله، قبل أن يضعه على الطاولة التي بجواره بحرص، فقالت أمهما:

- لأنني ما وجدت مصحفًا هنا.

فأوضح له أحمد قائلًا:

- أمي كانت تُحَفِظ القرآن في بيتنا القديم، لذا أول شيء يلفت نظرها في أي مكان هو وجود المصحف.

فقالت أمهما لعدنان بسعادة:

- نعم، ويمكنني أن أُحَفِّظك القرآن، كما أفعل مع أبنائي.

فقال عدنان بابتسامة:

- لكان ذلك من دواعي فخري، غير أني أحفظ القرآن كاملًا.

تفاجأت ريم، ورفعت أمها حاجبيها من الدهشة، وسألته:

- حقًا؟! ما مدى متانة حفظك؟

فتردد قليلًا، ثُمَّ قال بتواضع:

- الحمد لله، أحفظه كالفاتحة.

- ما شاء الله، هل سمعتِ يا ريم؟

احمر وجه ريم خجَلا، وتنبأت بما ستقوله أمها، التي أضافت:

- حفظ أحمد متين، أما ريم فحفظها متفلت.

التقط عدنان أمارات الإحراج من وجه ريم، وقال بلطف:

- عليك بكثرة التكرار فقط يا ريم، كانت هذه نصيحة شيخي لي، إذا تنافس في الحفظ أستاذ جامعي وطفل صغير، سيتفوق على الآخر أكثرهما تكرارًا.

فقالت ريم بامتنان:

- إن شاء الله، سأعمل بنصيحتك.

وقف أحمد قائلًا:

- لقد اشتريت هذا القميص أيضًا، ما رأيك به؟

ابتسم عدنان، وهو يقول:

- يستحق العلامة الكاملة.

سعُدت ريم لاختياره هذا التعبير لأنها تحبه، فهمَّت بالابتسام غير أن نظرات أمها المحذرة سبقت ابتسامتها، فعادت ابتسامتها من حيث أرادت أن تأتي، فتابع أحمد بسعادة:

- واشترت أمي معطفًا، أما ريم لم تشتري لنفسها أي شيء هذه المرة.

فصمت عدنان لثوانٍ، ثم قال لريم بجدية:

ـ حسنًا فعلتِ، لا تشتري شيئًا يا ريم.

فنظرت له بدهشة، واكفهر وجهه، قبل أن يقول بتردد:

ـ في آخر غرفة في الردهة، ستجدين حقيبتي ملابس نسائية جديدة، خذيهما لك.

فرفضت ريم قائلة:

ـ طبعًا لا، لا يمكن أن آخذها.

فعقد حاجبيه وقال:

ـ الملابس كلها جديدة تمامًا.

ـ لا أقصد هذا، لكن صاحبة الملابس عندما تأتِي في أي وقت و...

ـ لن تأتي.

قالها بحدة منهيًا الحوار، وقد تصلبت عضلات صدغه، فضغطت أمها على يدها لتصمت عندما لاحظت عصبيته بسبب ذكره لأمر الملابس وصاحبتها، وقالت باعتذار:

ـ أتعبناك يا بُني.

فلم يرد وأغمض عينيه، لكن صدره كان يعلو وينخفض من الانفعال، فخرجت ريم وأمها من الغرفة، بينما بقي أحمد معه، وتوجهتا إلى حيث الغرفة التي بها الملابس، وعندما فتحت الحقائب، قالت لأمها بانبهار:

ـ انظري يا أمي! هذه الملابس تبدو غالية جدًا، لكن كيف آخذها؟ وأين أرتديها؟ هنا في القرية؟ أم في المناطق الشعبية التي أنتمي إليها؟ بل ولماذا آخذها من الأساس؟ لن أشعر بالراحة إن أخذتها.

فربتت أمها على وجهها، وقالت:

- تمنيت أن أسمع منك هذا الرد.

وتركتا الملابس كما هي، وغادرتا الغرفة بهدوء.

بعد انتهاء إحدى جلسات العلاج الطبيعي، بشَّرهم سامي بأن العلاج الطبيعي يُحدث تقدمًا ملحوظًا، وبأن عدنان سيتمكن من الوقوف على

قدميه من جديد في القريب العاجل، فرحت ريم لأجله بشدة، وتعجبت حين رأت أمها غير مبتهجة لذلك، فسألتها بعد ذهاب سامي:

- ما الأمر يا أمي؟ ألست سعيدة من أجل عدنان؟

- بلى سعيدة ، لكن! لكن ماذا بعد؟ لقد كان سليمًا من قبل، وبالرغم من ذلك كان منغلقًا على نفسه، رافضًا للحياة ، والآن بعد أن نتركه، حتمًا سينغلق على أحزانه مجددًا.

وصمتت قليلًا، ثم أضافت:

- عدنان لن يُشفى طالما أن هناك حزن جاثم على صدره، كما يقول الشاعر:

قُلْ لِلطّبيبِ الذي قد جاءَ يُسعِفُنا، لا تُهدِرِ الوقتَ ليس الجُرْحُ بالبَدَنِ.

إنّ الليالي قد قالت وقد صدقت، إن الجِراحَ جِراحُ الروحِ لا الجسد.

انقبض قلب ريم، لأنها تعرف أن أمها لم تكن يومًا لا بالمبالغة ولا بالمتشائمة، معنى قولها إن الأمر جد خطير، فقال أحمد بلا مقدمات:

- أعتقد إن هناك امرأة يحبها عدنان، وابتعدت عنه وهذا سبب حزنه.

فشعرت ريم بألم مفاجئ في قلبها إزاء قول أحمد، فقد كانت تظن أن سبب حزنه يتعلق بالحادث، فسألته أمهما بدهشة:

- امرأة؟!

فتابع بتردد، وقد دمعت عيناه:

- نعم، فمنذ أيام سمعته يهذي وهو نائم، قائلًا: سامحيني، فخفت عليه من الانفعال، وأيقظته فوجدته يبكي، وعندما سألته عن سبب بكائه، قال: لقد

حطمت إنسانة ما رأيت منها إلا الخير، أسمع صدى أنينها يتردد على مسامع قلبي.

فربتت ريم على كتفه ليهدأ، وهي أكثر حاجة منه لمن يهدئها، وقد داهمتها غيرة بسبب طيف تلك المرأة الغامضة، وسألهما أحمد بحزن:

- ألا يمكن أن نساعده؟ لا أحب أن أراه باكيًا.

قالت أمهما بحزن:

- لكن كيف نساعده وهو كتوم جدًا، وكلما فتح قلبه وزلق لسانه بكلمة عن حياته الخاصة ينهي الحوار، إذ يبدو أن مجرد البوح يؤلمه.

طغى خوف ريم على عدنان على غيرتها من تلك المرأة، فقالت بإصرار:

ـ سأطلب من المحامي المجيء إلينا الآن.

ـ المحامي!

ـ نعم، إن كان البوح يؤلم عدنان، فلا شك إن المحامي يملك الإجابات التي نحتاجها لنساعده قبل فوات الأوان.

جاء المحامي مهرولًا والقلق يبدو على قسمات وجهه لأن ريم لم تخبره بأية تفاصيل، وطلبت من أحمد البقاء مع عدنان، حتى لا يسمع أي شيء يخص الحادث، وفي غرفة المكتب، جلس المحامي على الأريكة مقطوع الأنفاس، وسألها بقلق:

ـ هل عدنان بخير؟

فردت أمها بجدية:

ـ بخير، وليس بخير، من ناحية الدواء والعلاج، بخير وقريبًا سيقف على قدميه، لكننا نخشى أن يعود إلى ما كان عليه، وينغلق على نفسه حتى يسحقها.

صمت المحامي لثوانٍ، وقد اكفهر وجهه، ثم قال:

- هذا ما أخشاه أيضًا.

ودون مقدمات، سألته ريم:

ـ من تكون تلك المرأة التي أذاها عدنان؟

ونظرت إلى المحامي بحزن وترقب لسماع قصة حبه لامرأة ملكت قلبه، لكن المحامي صمت مطولًا، فأضافت بحزن:

- إن كانت زوجته أو خطيبته قد تركته، لِمَ لا نسعى سعينا لإعادة الوصل بينهما.

صمتت ريم، وقد شعرت بألم في قلبها وهي تنهي الجملة، غير أنه رد قائلًا:

ـ إنها خالته، فريال هانم.

فتفاجئت من قوله، ورددت:

- خالته!

فتردد للحظات، ثُمَّ أضاف:

ـ هي خالته، وزوجة عمه الوحيد في الوقت نفسه، قامت بضمه وأخيه إلى أسرتها بعد وفاة والديهما، كانت بمثابة أمه قبل أن...

وصمت، فسألته ريم:

ـ زوجة عمه الوحيد؟ إذن فهي أم ذاك الشاب الذي يقولون أن عدنان قتله.

انزعج المحامي من قولها، ورد بتصميم:

ـ عدنان لم يقتل أحدًا.

فانتفض كيانها من السعادة، وسألته بلهفة:

- ماذا عن الشائعات التي تملأ القرية عن قتله أخاه وابن عمه من أجل الميراث، وعن تجارته للمخدرات؟

أرجع المحامي ظهره للوراء مستندًا إلى ظهر الأريكة، وتنهد بعمق قبل أن يقول:

ـ كما قلتِ شائعات، كان فادي ابن عمه فاسدًا مدللًا، أدمن المخدرات، وجرَّ سيف الأخ الأصغر لعدنان للإدمان، لأن سنه كان قريبًا من سنه، وكان شديد التأثر به، لكن عدنان وقف بجوارهما حتى تعافيا، وبعد ذلك حاول إبعاد أخيه سيف عن فادي، فقام بإلحاقه بالعمل معه في الشركة ليكون أمام عينيه، وخطب له الفتاة التي يحبها ليحثه على بدء حياة بعيدة عن اللهو وعدم المسؤولية، وحاول فعل الشيء نفسه مع فادي، إلا أنه كان عنيدًا، يهوى حياة السهر والفساد، وما لبث أن عاد للإدمان مرة أخرى، لذا قام عدنان بتقييد حساباته البنكية، لإرغامه على معاودة العلاج، إلا أنه ثار وتطاول على عدنان لحد أن تشابك معه بالأيدي على مرأى ومسمع من العاملين بالشركة.

وتنهد بعمق، وتابع:

- غير أن عدنان صمم على موقفه، من أجل إصلاحه، فانتهز فادي فرصة سفر أمه وأخته مع عدنان لإبرام بعض الصفقات في لندن قبل زفاف سيف بأسابيع، ونكايةً في عدنان أغدق على سيف بالمخدرات مجددًا، حتى تمكنت منه، فاتصلت خطيبة سيف بعدنان، وأخبرته بتردي حالة أخيه وبانفصالها عنه، فعاد من لندن وحده دون أن يخبر أحدًا، فوجد أخيه في حالة متأخرة بالفعل، بعد أن تعاطى جرعة زائدة من المخدرات، فاتصل بالإسعاف لكن فاضت روح سيف قبل وصول المسعفين، فارتعب فادي، وفرَّ من أمام عدنان خوفًا من أن يفتك به، لكنه ومن تأثير المخدرات عليه سقط من فوق سور السلالم مدرجًا في دمائه.

مسح المحامي جبينه بيده، وتابع:

ـ ذاع الخبر وانتشر في الصحف مرفقًا بصور الجثتين، ورجال الشرطة يقتادون عدنان إلى قسم الشرطة، مع كمية المخدرات التي تم ضبطها بمكان الحادث، فانتشرت الشائعة على أنه قتلهما، وأنه يتاجر بالمخدرات.

فسألته ريم بلهفة:

ـ هل تمت تبرئته؟ أم أنه سُجِن؟

ـ لقد تمت تبرئته بعد أن قضى فترة محبوسًا على ذمة القضية، كان يعاني خلالها من أثر صدمة فقدان أخيه وابن خالته، لدرجة أنه لم يدلِ إلا بأقوال مقتضبة، كادت تدينه، لولا أن عثرنا على تسجيلات الكاميرات التي أثبتت

أنه لم يكن سببًا في وفاة أيِّ منهما، حيث ثبت أنه لم يدفع فادي من فوق سور السلالم، ولم يلاحقه من الأساس، بل أظهرته الكاميرات وقد جلس يحتضن جثة أخيه في ذهول، كما ثبت فيما بعد، أن سبب وفاة سيف هو جرعة زائدة من المخدرات.

فسألته ريم بانفعال:

ـ لماذا إذن لا يزال موصومًا بهذه الجريمة رغم تبرئته من القضاء؟

ـ ألا تعرفين كيف تسري الشائعات يا ريم؟ تتصدر أخبار الفضائح وسائل التواصل الاجتماعي، وتحتل الصفحات الأولى من الصحف بالخط العريض، وتأتي التبرئة في الصفحات الداخلية بخط صغير، ومن الناس من تستهويه قصص الفضائح والجرائم، وقليلون من يسعون لمعرفة الحقائق.

فسألته أم ريم:

ـ لماذا لم تخبر خالته بحقيقة الأمر، لتسامحه؟

ـ خالته انهارت تمامًا فور علمها بالخبر وهي بالخارج، وتم حجزها بإحدى المصحات النفسية هناك، فانسحبت تمامًا من الساحة، بعد أن كانت من ألمع رائدات الأعمال، فقد أصبحت سجينة مرضها وسجينة ابنتها، التي فرضت عليها سياجًا بعد عودتها إلى مصر، لتبعدها عن تطفل الصحافة والفضوليين، وتولت أمر إدارة الشركات والأعمال بدلًا منها، وحاربت عدنان بكل قوتها، فكانت سببًا رئيسيًا في إفلاس شركاته، مما اضطرنا لبيع

ممتلكاته حتى السيارات والعقارات، وما بين التحقيقات والجلسات حتى صدور الحكم، كان كل شيء قد انهار.

فسألته ريم بانفعال:

- لكن لماذا حاربت عدنان بذلك الشكل؟ لماذا صدقت أنه قتل أخاها؟

- شخصية سهام شخصية معقدة فهي هوائية، جامحة، تشبه إلى حد كبير شخصية أخيها فادي، غير أنها كانت تختلف عنه لكونها مخلصة للعمل، تعشق النجاح، تتمتع بذكاء حاد إذا وظفَته بشكل صحيح، لذا، كانت أمها تضع عدنان كمراقب على قراراتها، فكانت تقاوم دوره الرقابي رغبة منها في إثبات نفسها، فكانت تعارضه بلا هوادة حتى في الحق، فكانت تنحاز لأخيها ضد عدنان عندما قيد حساباته البنكية، وكانت تسمي ذلك إذلالًا، لذا بعد الحادث، خلت لها الساحة، وواتتها الفرصة لتُجهِز على عدنان لتصفية حساباتها القديمة معه مِن تحكم وتهميش، من وجهة نظرها.

وشرد بعيدًا، ثُمَّ تابع وهو يضيق عينيه:

- مفاتيح استقرار سهام الفعلية في يد أمها، فهي وحدها التي كانت قادرة على إعادة ترتيب أوراقها، وتصحيح مسار تفكيرها، لكن مع غياب دور الأم أطلقت لذكائها الشرير العنان، حتى أن زوجها خاف على ابنهما من رغبتها الجامحة في الشر والانتقام، فابتعد عنها وأخذ ابنهما الوحيد وسافر، مما ضاعف من رغبتها في الانتقام من عدنان.

قالت أمها بإشفاق:

- يا الله! كل هذا يحمله عدنان على كتفيه، لو كان جبلًا لانهدم.

سالت دموع ريم، وشعرت بقلبها يتمزق من تخيل مشاعر عدنان، الذي فقد أخاه الوحيد، واتهم ظلمًا، وتردد بين السجن وأروقة المحاكم، وفقد حب خالته، وعاش في قصر مهجور وحيدًا، سجينًا، محاطًا بنظرات محرقة وألسنة لا ترحم.

فقالت ريم بحزن:

- ليست مفاتيح سهام وحدها التي بيد خالته، بل عدنان نفسه، دواؤه خالته.

فقال مؤيدًا:

- نعم، هي كذلك.

فسألته باهتمام:

ـ لقد ذكرتَ أن خالته قد عادت إلى مصر؟

- نعم.

فمسحت دموعها، وقالت بحزم:

- إذن، أعطني عنوانها.

نظر المحامي إليها، وكذلك فعلت أمها، وسألها:

ـ فيم تفكرين؟

ـ سأذهب إليها.

الفصل السادس

(عودة الروح إلى الجسد)

في الصباح ارتدت ريم فستانًا ورديًا أنيقًا من مجموعة الفساتين التي أعطاها لها عدنان، ووضعت على رأسها غطاء رأس من الشيفون بلون يتماشى معه، وتأملت نفسها بالمرآة كانت تبدو مثل سيدات المجتمع الراقي كما يقولون، وكما أوصاها المحامي لإيهام رجال الأمن على البوابة تعاملت معهم بثقة كأنها إحدى معارف فريال هانم وسهام، وبالفعل أدخلها موظف الأمن بسهولة بفضل سيارة المحامي الفارهة ومظهرها المتأنق، ومما ساعدها أيضًا على الدخول أن زيارتها تزامنت مع سفر سهام إلى الخارج، نظرت ريم إلى حيث أشار لها موظف الأمن، فرأت فريال هانم على البعد، في زاوية مطلة على حمام السباحة، وكانت متكئة على عصاها ناظرة إلى الأرض بشرود، فرق قلبها لمنظرها المنكسر، واقتربت منها بحذر، وحيتها قائلة:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فنظرت لها بهدوء عبر عينيها الذابلتين، كانت ملامحها هادئة، حيث البشرة البيضاء الشاحبة، أما عيناها الخضراوان فشابهما حزن عميق، انعكس في صوتها حين ردت عليها بهمس:

- وعليكم السلام.

ـ هل تسمحين لي ببعض الوقت؟

فنظرت لها بصمت، فجلست ريم دون استئذان حتى لا تثير ريبة رجال الأمن الناظرين لهما عن بعد، وشعرت بالرهبة لثوانٍ، وهي تستشعر أهمية كل كلمة ستقولها:

ـ اسمي ريم، جئت طالبة النصيحة من حضرتك، بخصوص أخي.

فتنهدت بتعب، وسألتها بضعف:

ـ وهل أعرفك؟

ـ لا، لكنك تعرفين أخي.

فنظرت لها بتركيز أربكها، فحاولت استحضار كل ما تدربت على قوله، وتابعت:

ـ لقد مرّ أخي بأزمة كبيرة، إذ أصيب بجرح خطير في قدمه، كاد يُفقده حياته، ورغم إرغامنا له على العلاج، إلا أن حزنًا داخليًا يمزقه، وعندما سألناه عن سببه، قال: لأنه المتسبب في أنين المرأة الأقرب إلى قلبه.

فبدا في عينيها التأثر، وقالت بتهذيب:

- إن أردتِ نصيحتي، عليك بالتحدث إلى المرأة التي يحبها أخوكِ، لأنك تضيعين وقتك معي.

فقالت ريم بترقب:

ـ لقد تحدثت إليها ، لتوّي.

فنظرت لها باهتمام طمأن ريم، وسألتها بدهشة:

ـ لتوّك؟ هل تقصدينني أنا؟

ـ نعم.

ـ هل لك أخ يحبني، ويعتقد أنه أذاني؟

ـ نعم.

ـ من يكون أخوك؟

فترددت لوهلة، وأمام ترقبها أجابتها بهدوء:

ـ عدنان الحسيني.

فبدت الصدمة على ملامحها وأخذت تتنفس بسرعة، ثُمَّ قالت بتشكك:

ـ لكن عدنان ليس له أخوات.

فقالت ريم على الفور:

ـ أعلم، فهو أخي في الإنسانية، أنا أسكن بجواره في الفيوم.

فعقدت حاجبيها، وسألتها بدهشة:

- الفيوم؟ لكنه مسجون.

فابتلعت ريم ريقها بصعوبة، وقد جف حلقها، وقالت بحذر:

- لقد انتقل إلى قصر الفيوم، بعد أن قضت المحكمة ببراءته.

فنظرت لها بعدم تصديق، وسألتها بذهول:

- براءته؟

فردت بثبات:

- نعم، عدنان بريء.

بدا على وجهها الاضطراب، وسألتها بانفعال:

- كيف هذا؟ ماذا تقولين أنت؟

فقالت ريم برجاء:

- اهدئي أرجوكِ، لا داعي للانفعال، أنا هنا لأخبرك بالحقائق الغائبة عنكِ، عدنان نفسه لا يعلم أني هنا الآن.

فحاولت فريال هانم السيطرة على انفعالها بصعوبة، ثم نظرت لريم لتحثها على المتابعة، فتابعت:

- قبل الحادث اتصلت خطيبة سيف بعدنان في لندن، وأخبرته أن سيف انتكس وعاد للإدمان بسبب فادي، فرجع وحده في حالة من الهلع، وبالفعل فوجئ بتردي حالة أخيه إثر تعاطيه لجرعة زائدة من المخدرات، وعندما مات بين يديه، خاف فادي من غضبه، وجرى من أمامه مترنحًا تحت تأثير المخدر، فسقط من فوق سور السلالم.

وضعت فريال هانم وجهها بين يديها، وأجهشت بالبكاء، فصمتت ريم وقد أدركت صعوبة وصف تفاصيل مفارقة ابن للحياة أمام أمه، مهما كان هذا الابن مخطئًا، فربتت على كتفها بتعاطف، وعندما هدأت قليلًا، جثت على ركبتيها أمامها، ونظرت بعمق في عينيها، وقالت بتأكيد:

- عدنان لم يمس فادي من الأساس، وهذا ما أثبته تسجيل الكاميرات، وسيف مات بسبب جرعة زائدة من المخدرات، ويمكنك التأكد من كلامي.

فنظرت لها فريال هانم عبر دموعها، وقالت بصوت مرتجف ومتقطع بسبب المفاجأة والبكاء:

ـ لقد... لقد... خرجت مؤخرًا من المصحة، وحالت سهام ابنتي بيني وبين الناس والصحافة، كل ما علمته أن عدنان... أن عدنان... قتل ابني بسبب الخلافات التي كانت بينهما قبل الحادث، وأنه بالسجن.

وصمتت، وقد ازداد اضطرابها بشكل أخاف ريم، ثم وقفت بغضب وجسدها يرتعش من الانفعال، وهي تتساءل:

ـ كيف لم يخبرني أحد بذلك؟ كيف لا أعرف أنه بريء؟

لاحظت ريم نظرات موظفي الأمن القلقة تجاههما على البعد، فقالت:

ـ اهدئي أرجوك، لقد حاول المحامي الوصول إليك، لكن حيل بينه وبينك كما قلت.

فمسحت دموعها بعصبية، وقالت لريم بحزم:

ـ هيا بنا!

فسألتها بترقب:

ـ إلى أين يا سيدتي؟

ـ خذيني إلى عدنان.

رقصت الفرحة في عيني ريم، وسألتها بعدم تصديق:

ـ لكن، هل حالتك الصحية تسمح بذلك؟ أعني يكفي أن تتصلي به.

فهزت رأسها برفض، وأمسكت بيديّ ريم في رجاء، وقالت:

ـ لا، بل خذيني إليه.

واختلط صوتها بالبكاء، وقالت:

ـ لقد اشتقت إليه، شوقًا لا يرويه سماع صوته فقط، أريد أن أراه وأضمه.

فبكت ريم في تأثر، وقبلت يدها، فرمت العصا من يدها، واستندت إلى ريم، وتوجهتا بحماس صوب البوابة، فسألتها ريم:

ـ ألن تخبري أحدًا عن وجهتك؟ قد يقلقون عليك يا سيدتي.

فوقفت مكانها تفكر للحظات، ثُمَّ قالت لأحد موظفي الأمن الذين تجمعوا حولها في الحال:

ـ قل لفتحية أن تُجهِز لي حقيبتي، وتستعد لمرافقتي الآن.

فسألها الرجل بقلق:

ـ إلى أين يا سيدتي؟

ـ إلى الفيوم.

فاضطرب موظف الأمن، وقال:

- ليرافقك أحد منا يا سيدتي.

فقالت بإصرار، وقد تحولت في لحظات إلى الشخصية الآمرة التي حكى لها المحامي عنها:

- لا أريد أحد منكم معي، اذهب وأبلغ فتحية ما قلته لك، وإلا سأذهب بدونها.

صرفت ريم سائق المحامي الذي أوصلها، وجلست بجوار فريال هانم في سيارتها، وبعد قليل رأت سيدة متوسطة العمر تجري مسرعة تجاههما، وهي تحمل حقيبة بيدها، ونظرت من النافذة، وسألت بخوف:

ـ ما الأمر يا سيدتي؟

ـ تعالي معنا، سنذهب إلى عدنان.

فسألتها بعدم تصديق:

ـ عدنان؟ ابن أختك؟

ـ نعم.

على سلم القصر قابلوا أحمد، وهو يقوم بتوصيل أخصائي العلاج الطبيعي إلى باب القصر، وقد أنهى الجلسة مع عدنان، دق قلب ريم بقوة وهي تطرق باب غرفته، كانت أمها وسامي معه، وكان جالسًا على فراشه منهكًا، كحاله

بعد جلسة العلاج الطبيعي، ونظر صوبها بلهفة ممتزجة بالتعب، ولاحظ بشجن أنها ترتدي الفستان الوردي، فبادرته قائلة بسعادة:

ـ معي مفاجأة لك.

فبدا على وجهه القلق، فقالت بهدوء:

- لكن عدني أن تضبط أعصابك أولًا.

فنظر لها بجدية، وأمام صمتها أخذ نفسًا عميقًا، ثُمَّ قال:

ـ حسنًا.

واعتدل في جلسته، ونظر بترقب شديد صوب الباب، وهو يرى ريم تفسح لمن ورائها، وعندما بدت خالته أمامه، فتح عينيه بعدم تصديق ليتحقق مما يرى، وزادت سرعة تنفسه وهو يرى خالته تتقدم نحوه وقد سالت دموعها على خديها، ثُمَّ قطعت المسافة إليه مسرعة، وانكبت عليه تضمه بصمت، فلف ذراعيه حولها بقوة، ودفن وجهه في كتفها، وامتزجت أصواتهما ببكاء يذيب القلب، ثُمَّ أخذ يكرر بصوت مبحوح دون أن يرفع رأسه:

ـ أنا لم... أقتله، لم أقتله...

ـ أعرف يا حبيبي.

ـ لم أقتل أيا منهما، صدقيني يا خالتي.

وعلا صوت نحيبه، فقالت خالته برجاء:

ـ اهدأ يا حبيبي.

فأرجع رأسه للخلف، ونظر لخالته بعينيه الممتلئتين بالدموع، وقال بصوت مرتجف:

ـ لم أقتلهما.... بل كيف أقتلهما؟

فربتت على جانبي وجهه بكفيها، ونظرت بعمق في عينيه، وقالت بثبات:

ـ أنا أعرف الحقيقة كاملة، لست هنا لأحقق في الأمر، أنا هنا لأضمك إليّ فحسب، لقد اشتقت إليك يا عدنان.

وراحت تمرر أصابعها في شعره ليهدأ، فأشارت أم ريم لسامي ليخرج معها، فقد كان يتابع ما يجري أمامه بذهول، فخرجا وتبعتهما ريم، ووقفوا جميعًا خارج الغرفة ينظرون لبعضهم بصمت، فسألهما سامي بصوت خفيض:

ـ أسمعتما ما قال؟

قالت له ريم:

ـ تعال إلى المطبخ، لن نتحدث هنا.

وقصت عليه وعلى أحمد الحقائق كاملة، فظلا صامتين، وبدا على وجه سامي الاندهاش المشوب بالراحة، بينما قال أحمد بثبات:

- لو كنتِ أخبرتني من قبل، ما كنت صدقت أبدًا أنه قاتل.

وقال سامي في ندم:

ـ كدت أخطئ في حق نفسي خطأ لا يغتفر لو تكشَّفت لي الحقائق بعد فوات الأوان.

وقالت أمها من بين دموعها:

ـ أنا فخورة بك يا ريم، بالتأكيد كانت مهمة صعبة عليك.

فتنهدت ريم قائلة:

ـ كان الله يحفني بتيسيره في كل خطوة، لكن أصعب لحظة كانت عندما ذكرت أمامها كيف مات ابنها، لكن الله سلَّم.

فسألهما سامي بترقب:

ـ هل كنتما تعرفان هذه الحقيقة عندما دافعتما عنه أمام أهل القرية؟

ـ لم نعرفها إلا بالأمس.

ـ ألم أقل لكما من قبل أنكما شخصيتان استثنائيتان؟

وصمت لثوانٍ، ثم قال:

- يا الله! لطالما حاربت رغبتي في البحث عن قضيته على الإنترنت لمعرفة تفاصيل الحادث كاملة، لكن كنت أتردد خوفًا من الحقيقة، خفت أن أضعف مجددًا وأتقاعس عن علاجه إذا بدت لي تفاصيل توغر صدري تجاهه، لكن الحمد لله، أشعر الآن إن حملًا ثقيلًا انزاح عن كتفي.

بعد مغادرة سامي بلحظات، دخلت السيدة فتحية إلى المطبخ، فعرَّفتها ريم على أمها وأخيها، وكانت سيدة لطيفة، وقالت لها أم ريم:

ـ أرجو أن تعتبريني مساعدتك هنا، لأني لا خبرة لي في إدارة شؤون القصور، والآن أريد منك اختيار غرفة لك ولفريال هانم، حتى نجهزها لكما.

فقالت بابتسامة:

ـ حسنًا، سنشرب قهوة التعارف أولًا، وبعدها سأذهب معك.

في اليوم التالي، عندما استيقظت ريم، طلبت منها أمها أن تذهب إلى القصر إلى أن تعود هي وأحمد من السوق، فدخلت ريم إلى المطبخ، ولم تجد فتحية به، فوقفت تعد الشاي، فإذا بصوت فريال هانم من ورائها:

ـ صباح الخير يا ابنتي.

وعندما التفتت ريم نحوها، فوجئت بها وقد أضحت امرأة أخرى غير التي رأتها في حديقة بيتها بالأمس، فقد عادت الحيوية إلى ملامح وجهها، وبدا بعينيها البريق، وفوجئت بها ريم تضمها إليها بدفء، وهي تغمغم:

ـ لقد أعدتِ إليّ روحي.

ولم تبعدها على الفور، فقالت ريم بسعادة:

ـ الحمد لله، لولا استجابتك المميزة، ما كانت هناك فائدة ترجى من زيارتي لك.

وجذبت لها ريم كرسيًا أمام الطاولة، وقالت:

ـ تفضلي بالجلوس يا سيدتي.

فشكرتها بلطف، وقالت وهي تجلس:

ـ هل أطمع في كوب من الشاي؟

ـ طبعًا، على الرحب والسعة.

قدمت لها ريم الشاي ومعه قطع البسكويت، وما إن جلست على الكرسي أمامها، حتى قالت لها:

ـ قلتِ لي بالأمس إنك جارة عدنان، لكن لا يوجد جيران للقصر سوى بيت عمي عبد الكريم عبد الصمد.

ـ إنه منزل جدي لأمي.

فبدت على وجهها الدهشة، فاحمر وجه ريم وقد فهمت سبب دهشتها، فابتسمت قائلة بخجل:

ـ الملابس التي ارتديتها بالأمس ليست لي، وإنما كانت موجودة هنا بالقصر، وسمح لي عدنان بارتدائها، لأن بيتنا في القاهرة انهار فوق ملابسنا وأغراضنا قبل انتقالنا إلى هنا، والسيارة ليست سيارتي، بل تخص المحامي عز الرجال، عندما طلبت منه عنوان حضرتك أرسل لي سائقه بالسيارة، أما نحن، بسطاء كما ترين.

لاحظت فريال هانم أنها ربما أحرجتها بسؤالها، فسألتها بلطف:

ـ أنت ابنة من؟ فوزية أم سهير أم فايزة؟

ـ ابنة فوزية، هل تعرفين أمي؟

فردت بابتسامة:

ـ طبعًا، كنا نلعب سويًا.

وارتشفت رشفة من الشاي، وقالت:

ـ نحن أيضًا بسطاء رغم نشأتنا بالقصر، إذ كنا نخدم أنفسنا بأنفسنا، نغسل، ننظف، نخبز ،نطبخ، نربي الطيور ونجمع البيض كل صباح.

دهشت ريم، وسألتها بابتسامة:

ـ حقًا؟

ـ صدقيني، وكنت أحب هذه الحياة، وهذا القصر، إلى أن باعد أبي بيني وبين ما أحب.

وصمتت بحزن، فسألتها ريم بفضول:

ـ كيف؟

فتنهدت، وقالت وبريق الدموع يلوح في عينيها:

ـ أردت أن أتزوج من ابن خالي هنا في الفيوم، كانوا فلاحين ويزرعون أرضهم بأنفسهم، مثل كل أهل أمي، وفاتح خالي أمي في أمر زواجي من ابنه الوحيد، وسعدتُ سعادة غامرة حين أخبرتني أمي بذلك، فقد كان ابن خالي دمث الخلق طيبًا، كريمًا، شهمًا وحافظًا للقرآن، به كل الصفات التي أحببتها في شريك حياتي، غير أن أبي رفضه وزوجني في القاهرة من الشقيق الأصغر لزوج أختي عزة التي كانت متزوجة زواج مصالح قبلي بسنوات، وتسبب ذلك بقطيعة دامت بين خالي وأمي حتى توفاهما الله.

ـ متى كان ذلك؟

ـ منذ ثلاثين عامًا.

ومسحت دموعها التي انحدرت على وجنتيها دون أن تشعر، وقالت:

ـ أحسست أن حياتي اختطفت مني، ورغم أن الحياة التي عشتها في القاهرة كانت ظاهريًا أكثر رفاهية من حياتي هنا، إلا أنني لم اندمج فيها إطلاقًا، كنت أنتمي إلى هنا، ولا أزال.

انتبهت ريم إلى ما ختمت به جملتها "ولا أزال" ثلاثون عامًا ولا تزال جذور انتمائها مدفونة في أرضٍ أحبتها، هاجرت منها لكنها لم تهجرها، تابعت فريال هانم بعد أن رشفت رشفة من الشاي:

ـ زيدي على ذلك أنني وزوجي كنا مختلفين في كل شيء، فقد كنت بسيطة، حالمة ورومانسية، أما هو فكان عصبيًا، لا يتكلم إلا بلغة الأرقام والحسابات، فعشت حياة جافة في مجتمع زوجي، وكنت محل انتقاد دائم من أسرته، كنت فلاحة سجينة في زي عصري، ومع الأيام تشبَّهتُ بهم ظاهريًا، أما روحي فقد استودعتها الطين الذي أحببته.

وصمتت برهة، ثُمَّ تابعت:

ـ وبعد وفاة زوجي، صرت فلاحة في زي سيدة أعمال، لأول مرة أكون مسؤولة عن أموال وعقارات وشركات، فأغدقتُ على أولادي بالأموال بلا حساب حتى أفسدتُهم، أصبحت البنت، أنانية، حادة الطباع، جافة الشعور ولكنها تهتم بالأعمال، أصبحت الآن بالخبرة سيدة أعمال ناجحة، أما الولد...

وارتعش صوتها وصمتت، وقد ملأ وجهها الحزن، فخافت ريم من تجدد أحزانها بذكر الحادث، غير أنها أكملت حديثها:

ـ لم يُهوِّن عليَّ حياتي إلا وجود عدنان فيها، بطيبته واتزانه، كان يذكرني بابن خالي في صفاته وأخلاقه، وكان يساندني في إدارة الشركات، ويوجهني بلطف في اتخاذ القرارات الصائبة حتى اكتسبت الخبرة، وأصبحت أتمتع ببعض الثقل في مجال الأعمال.

وشردت بعيدًا، ثم تابعت بشجن:

ـ وبالرغم من ذلك لا أرى نفسي إلا فلاحة أحن لجمع البيض، وأكل الفطير والخبز البيتي، وارتداء الجلباب.

دخلت فتحية المطبخ، وقالت:

ـ لقد استيقظ عدنان، ويسأل عنك يا سيدتي.

فتهلل وجهها، ووقفت على الفور، ثُمَّ قالت لريم بسعادة:

ـ سنكمل حديثنا فيما بعد، فقط تذكري أين توقفنا.

ابتسمت ريم، وهي تراها تغادر بسرعة وشوق، فقد أحبتها وشعرت بألفة معها، وبعد خروجها من المطبخ ومن ورائها فتحية، دخلت أم ريم وأحمد، فوضعت أمها المشتريات على الطاولة، وجلست وهي تقول:

ـ أشعر بصداعٍ شديد، لذا سأشرب الشاي الخاص بك يا ريم.

فابتسمت ريم، وناولتها الفنجان بحب، فنظرت أمها ليدها الممسكة بالفنجان، وسألتها:

ـ أين الخاتم يا ريم؟

فارتبكت ريم لأنها تحرص على إخفاء يدها الخالية من الخاتم عن أمها، وردت بتلعثم:

ـ في مكان ما، تعرفين أني أنسى كثيرًا.

فقاطعهما دخول فتحية إلى المطبخ، وبدأت في إعداد الفطور مع أم ريم، فخرجت ريم لتفقد الحديقة، وقابلت سامي عند باب القصر، ووجدت معه عصا معدنية، فنظرت لها مستفسرة فقال ببهجة:

ـ أحضرتها من أجل عدنان.

فغمرتها السعادة، وقالت بحماس:

ـ الحمد لله.

بعد أن وزعت ريم الأطباق على طاولة الطعام، نظرت نحو سامي وهو ينزل السلالم مسرعًا، ووقف عند نهايتها قائلًا بسعادة:

ـ هيئوا أنفسكم للمفاجأة.

فنظرت ريم لأمها وأخيها بعدم فهم، وما هي إلا لحظات، وظهرت فريال هانم وهي تنزل السلالم ممسكة بذراع عدنان، فانتفض قلب ريم من الفرحة، وقد خطف أنفاسها بمظهره المتأنق، وقد ارتدى بنطالًا كحليًا، وقميصًا أبيضًا، مخططًا باللون الرمادي مثل لون عينيه، وقد قصر شعره،

وحلق لحيته وشاربه، كان وجهه يتلألأ، كقمرٍ تخجل من أنواره البدور، وعندما نزل آخر درجات السلم، ناوله سامي العصا، فأخذها منه شاكرًا، واقتربت منه أمها، وقالت بفرحة:

ـ حمدًا لله على سلامتك يا بُني.

بينما قام أحمد باحتضانه بقوة، فضحك حتى بانت أسنانه البيضاء، وقال له أحمد مغمغمًا:

- الحمد لله، أنت بطل حقيقي يا عدنان، فقد تخطيت الصعاب.

لمعت الدموع في عيني عدنان متأثرًا من قول أحمد، وشدد من احتضانه له بقوة،

بينما وقفت ريم مكانها، وهو ينظر إليها منتظرًا تعليقها، حتى التفت الباقون إليها، ولم تفلح كل هذه النظرات في حثها على الكلام، فقد عاد عدنان الحسيني نفسه الذي رأته منذ خمسة عشر عامًا، ببهائه وإشراقه، وعندما رأى حيرتها وارتباكها، ابتسم بهدوء، فنبَّهتها هذه الابتسامة لضرورة أن تقول أي شيء، فقالت بعد جهد:

ـ مرحبًا.

فقال بسعادة:

ـ مرحبًا يا ريم.

فجذبت له خالته كرسيًا على رأس الطاولة، وقالت:

ـ اجلس يا حبيبي.

ـ هذا مكانك يا خالتي.

ـ بل مكانك أنت، أنا سأجلس بجوارك.

جذبت لها فتحية الكرسي على يمينه فجلست، وعندما همت ريم بالعودة إلى المطبخ قال عدنان:

ـ ريم اجلسي، واجلسوا كلكم، سنتناول الطعام معًا، كما كنا نفعل من قبل.

ونظر إلى خالته، وقال بابتسامة:

- كانت الزيارة ممنوعة عني لدواعي التعقيم، فكانوا يأتون بأطباقهم إلى الشرفة ويشاركونني الطعام، وكنا نتحدث عبر الهاتف، لم يتركوني أبدًا.

فرفعت خالته حاجبيها بدهشة، ثُمَّ قالت بامتنان:

- يا الله! في حياتي كلها لم أقابل أناسًا أوفياء مثلكم.

وما لبث أن أضاف عدنان بتأثر:

ـ حباني الله بكم، فكنتم حريصون عليّ أكثر من حرصي على نفسي، وتحملتم عصبيتي وعنادي، أنا مدين لكم بعد الله بحياتي.

ودمعت عيناه، وهو يقول:

ـ أنقذتم حياتي مرتين، أنقذتم جسدي مرة بعلاج قدمي، ثُمَّ أنقذتم روحي حين أوصلتموني بخالتي الحبيبة.

فربتت خالته على كتفه، فقبّل يدها بحب، فقالت أم ريم بسعادة:

ـ كما ردَّ الله سيدنا يوسف إلى أبيه سيدنا يعقوب عليهما السلام، ردَّ الله عدنان إليكِ وكتب لكما اللقاء.

فمسحت خالته دموعها، وقالت:

ـ معك حق يا فوزية، أنا أذكرك فهل تذكريني؟

ـ طبعًا، كم لعبنا معًا في حديقة قصركم هذا.

فابتسمت، وقالت بحب:

ـ أخبرني عدنان عن حبك للشِعر، وعن كلامك الإيماني معه.

فضحكت أم ريم، وقالت:

ـ لو لم يكن قلبه عامرًا بحب الله، ما اكترث لحرفٍ مما قلته له.

بعد قليل استأذن سامي للذهاب إلى المركز الطبي، واسترسلت فريال هانم في التحدث عن ذكرياتها في القصر مع أم ريم.

ـ ماذا تفعلين هنا يا ماما؟

التفتوا جميعًا إلى مصدر الصوت، فإذا بها فتاة شقراء، نحيلة، شعرها الأشقر يموج حول وجهها متماشيًا مع الغضب المتقد في عينيها العسليتين، كانت واقفة بذهول لدى الباب، ثم اقتربت من الطاولة وهي تنظر لفريال هانم باستنكار، وهي تقول:

ـ تأكلين مع قاتل ابنك؟

فوقفت فريال هانم بغضب، والتفتت نحوها قائلة:

ـ الزمي أدبك يا سهام، أو اذهبي من هنا.

قامت ريم تلقائيًا، ووقفت أمام عدنان لتحول بينه وبين تلك الفتاة الغاضبة، فأضافت فريال هانم بغضب:

- حسابي معك سيكون عسيرًا على ما أخفيته عني من حقائق.

فبدا عليها الارتباك، لكنها قالت باستهتار:

- حقائق؟ هل تُسَمّين ألاعيب محاميه التي ساعدته في النجاة بفعلته حقائق؟

فقامت أم ريم وفتحية في الوقت نفسه، واصطفوا خلف فريال هانم، فنظرت لهم سهام باستخفاف، وقالت بغضب:

ـ وهذه هي العصابة التي استغلت فترة سفري، وضحكوا عليك وجروكِ إلى وكر الذئب؟

فكظمت أمها غيظها بصعوبة، غير أنها تمادت قائلة بصوت عالٍ:

ـ هل هان عليك دم ابنك؟

فصفعتها أمها على وجهها بقوةٍ فاجأت الجميع، فتأوهت من قوة الصفعة، غير أنها رفعت رأسها ونظرت لأمها بصدمة، فقالت لها أمها بغضب:

ـ اخرجي من هنا.

فأمسكت بيدها، وقالت بعصبية:

ـ لن أخرج وحدي، لن أتركك هنا معه.

فقامت أم ريم بدفع يدها بقوة، وقالت بتحذير:

ـ إن وضعت إصبعًا على أمك سأكسره لك.

فنظرت لها سهام بعدم تصديق، فقالت فريال هانم بحزم:

ـ اذهبي، وعندما تتعقلي، عودي، ولن أسمح لك بالدخول إلا بعد أن تعتذري لعدنان على هذه الترهات التي تفوهت بها.

نظرت لها سهام بغضب، ثُمَّ ضربت الأرض بقدمها، وخرجت في صمت يشبه العاصفة، ونظر عدنان إلى مفرش الطاولة بحزن، فوقفت خالته خلفه، وأسندت رأسها إلى رأسه، فقال بألم:

ـ لم أُرِد أن أراها تتصرف على هذا النحو.

فقبلت رأسه، وقالت:

ـ ألا تعرف سهام؟ تثور كالبركان ثُمَّ تعود بعد دقائق تبتسم وتعتذر.

ـ لكن هذه المرة ليست ككل مرة، لقد أصبحت تكرهني، فقد وصل بها الأمر أن تحاربني، وتتسبب في إفلاسي كما قال لي عز الرجال.

بدت على وجه خالته الدهشة مما قال، لكنها ربتت على كتفه وقالت:

ـ تعرف أنها غير متزنة انفعاليًا وحمقاء، لكن حتمًا ستغير موقفها عندما أتحدث معها.

صمت عدنان، وبدا وجهه حزينًا، فأضافت خالته:

ـ وسأطلب منها أن تعمل بنفسها على إعادة كل ما تسببت لك من خسارة.

فتنهد عدنان، وقد لان وجهه، وهو يرى الثقة تغلف وجه خالته، وقال:

ـ لا تهمني الخسائر المادية، أنا لا أريد أن أخسرها هي، لا أريد أن أحرمك منها كما حرمتك من...

قاطعته خالته بحزمٍ أرادت أن تداري به ألمها:

ـ أنت لم تحرمني من أحد، مَن رحل أيا كانت الأسباب كان سينتهي أجله.

تدخلت أم ريم قائلة:

ـ صدقت يا سيدتي، سمعت الشيخ الشعراوي رضي الله عنه يقول ذلك، لا تقل مات بسبب كذا وكذا بل مات لأنه يموت.

حاولت فريال هانم تلطيف الأجواء رغم الألم الذي سكن عينيها عند ذكر ابنها، وقالت بابتسامة:

ـ نعم صدقتِ، لكن أخبريني ما كل هذه الشجاعة يا فوزية؟ هل كنت تعملين حارسة شخصية من قبل؟

ضحكت أم ريم، فأضافت فريال هانم بمرح:

ـ ستكسرين اصبعها.

ـ هكذا يقولون في الأفلام، لا أدري كيف قلتها.

فضحكوا جميعًا، غير أن عدنان قال بجدية:

ـ وأنت يا ريم، حين انتقلت أمامي للدفاع عني، شعرت وكأنك أم تحمي صغيرها.

شعرت ريم بالخجل أمام إطرائه، وأخفضت رأسها وصمتت، ولم تخرج من كل هذا الموقف إلا بجملة واحدة قالها عدنان عن سهام "لا أريد أن أخسرها"

الفصل السابع

(لقاء الذكريات)

بعد قليل قابلت ريم عُمر ومعتزة في الحديقة، وقاما معها بزرع شتلات الورود بمساعدة أخيهما حسين، فتألقت الحديقة، وارتدت ثوبًا جديدًا تمامًا.

ـ سلمت أيديكم.

التفتوا إلى صوت عدنان، وكان واقفًا على سلالم القصر مرتكزًا على العصا، فهرع نحوه حسين وسلَّم عليه بحرارة، وجرى عُمر نحوه، بينما حيَّته معتزة على استحياء، وهنأوه على سلامته، فبدا مغتبطًا لذلك، ثم توجه نحو الشجرة العتيقة التي اعتاد أن يصلي تحتها، وسبقه أحمد إليها حيث وضع له كرسيًا خشبيًا، ورأته ريم يصلي وهو جالس، فارتاح قلبها لمظهره الخاشع بين يدي الله، ووقفت بجوار أحمد، إلى أن فرغ عدنان من الصلاة، وعندما لاحظ متابعتها له، قال لها دون أن تسأله:

ـ نذرت بيني وبين نفسي في أول يوم أخرج فيه إلى الحديقة أن أصلي ركعتي شكر لله تحت هذه الشجرة العتيقة.

شعرت ريم بالسعادة ولم ترد، فرفع رأسه، ونظر تجاه نافذة غرفتها في بيت جدها وابتسم، فشعرت بالخجل، وجاءت معتزة وأخويها يستأذنون للذهاب، فودعتهم ريم إلى باب القصر، ثُمَّ انضمت إلى عدنان وأحمد، وساروا في أرجاء الحديقة بسعادة، فقالت له:

ـ بقي عليك شيء آخر.

ـ ما هو؟

ـ أن تقوم بإطعام القطط كما كنت تفعل، حتمًا اشتقت إليهم.

ـ هذا ما كنت أفكر فيه الآن، لقد اشتقت لهم كثيرًا.

قالت ريم بسعادة:

ـ لكن اعلم أني نقلت أماكن إطعامهم إلى المكان القديم، أمام بوابة القصر.

فصمت وبدا عليه القلق، لكنه لم يعقب.

عندما حان وقت الغداء، وكما فعل وقت الفطور، صمم عدنان أن تشاركه أسرة ريم الغداء، وأكد عليهم أنه لن يتناول أي طعام فيما بعد إلا إذا شاركوه إياه.

في صباح اليوم التالي، اتصلت فريال هانم بالمحامي، وطلبت منه المجيء وإحضار تقارير مفصلة عن وضع الشركة، وكانت ريم في الطريق إلى المطبخ

عندما نزل عدنان من غرفته بصحبة سامي، فغمرها الرضا وهي تراه يتنقل بحرية من دور إلى دور، وعندما توقفا أمامها، قالت له ريم:

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير يا ريم.

ـ فريال هانم تنتظرك بغرفة المكتب.

وهمت بالمضي إلى المطبخ، فاستوقفها سامي:

ـ ريم! أريد أن أتحدث معك في الحديقة.

فقالت على الفور:

ـ حسنًا، سأعطي الفناجين لأمي، وألحق بك.

ـ حسنًا سأنتظرك، وأنت يا عدنان لا تنس موعدنا في صباح الغد إن شاء الله.

فنظر له بصمت، ولم يرد على الفور، بل أومأ برأسه، وذهب إلى غرفة المكتب.

خرجت ريم إلى حيث ينتظرها سامي، فقال بلهفة:

ـ أرجو مساعدتك.

فقالت باهتمام:

ـ طبعًا، تفضل.

ـ معتزة.

فسألته بعدم فهم:

ـ ما بها؟

ـ أريد الارتباط بها.

تفاجأت ريم، وتهلل وجهها، وقالت:

ـ نعم الاختيار، معتزة إنسانة شفافة ونقية، لا يوجد مثلها هذه الأيام.

ـ لقد شعرت بذلك أيضًا، أعرف إنها قريبة منك لذا، أود أن تخبريها برغبتي في التقدم لخطبتها إن لم تكن مخطوبة.

فقالت ريم بسعادة:

ـ إن شاء الله سأذهب إليها بعد الغداء، وسأتصل بك لأخبرك بردها.

ـ سأنتظر اتصالك على أحر من الجمر.

حضر المحامي، فأدخلته ريم إلى حيث عدنان وخالته، وعقدوا اجتماعًا ثلاثيًا لقرابة الساعة، وبينما كانت ريم في طريقها إليهم لتقديم القهوة، سمعت فريال هانم تعنف المحامي قائلة:

ـ كيف تترك الأمور تصل إلى هذا الحد يا عز الرجال؟ الشركة الأم على حافة الإفلاس.

قال المحامي مرتبكًا:

ـ كنت منشغلًا مع التحقيقات، وكل شيء انهار وتداعى بسرعة مذهلة، فأنا محامي عملي كله في اللوائح والقوانين، لا خبرة لي في إدارة الشركات.

فتدخل عدنان مدافعًا عن عز الرجال:

- عز الرجال معذور يا خالتي، لقد طلب مساعدتي مرارًا، لكني تركت له كل شيء ولم أساعده.

صمتت فريال هانم لحظات، ولم تعقب على الفور، ثُمَّ سألت المحامي:

ـ أخبرني كيف يدار هذا القصر أيضًا؟

ـ جميع العاملين هنا متطوعون لخدمة عدنان، ريم وأسرتها والطبيب، طلب عدنان أن أحاسبهم فرفضوا بشدة.

ـ ماذا عن المعدات الطبية؟ من أين لك بثمنها؟

ـ هذه هديتي لعدنان.

ـ هديتك الحقيقية كانت وقوفك بجواره، وأنك لم تتخلَ عنه في محنته، أما التجهيزات اكتب لي تكاليفها، سأدفعها لك بشيك الآن.

- كما تشائين يا سيدتي.

وسألت عدنان:

ـ ما رأيك أن تتبرع بها يا بُني، بعد أن منَّ الله علينا بشفائك.

ـ أقترح أن نتبرع بها للمركز الطبي الخاص بالطبيب سامي.

ـ حسنًا، قم باللازم لذلك يا عز الرجال.

- حاضر يا سيدتي.

وتنهد عدنان قائلًا:

- أما ريم وأسرتها، لا أدري كيف أكافئهم على صنيعهم معي.

انتبهت ريم إلى يد أمها على كتفها، وسألتها بصوت هامس:

ـ ما هذا يا ريم؟ هل تتنصتين عليهم؟

فقالت ريم بإحراج:

ـ لا يا أمي ، لكنهم يتحدثون عن أمور مالية تتعلق بالقصر، أردت الانتظار حتى يغيروا الموضوع قبل أن أدخل إليهم.

مدت أمها يدها إلى أحد الفناجين ولمسته، وقالت لها:

ـ القهوة بردت، اذهبي وأعِدي غيرها.

غادر المحامي بعد قليل، وعلى الفطور بدا على عدنان وخالته التوتر، مما دفع أمها لسؤال خالته:

ـ ما الأمر؟ هل أخبرك المحامي بشيء أزعجك؟

فابتسمت وقالت بلطف:

ـ تقارير الشركة متراجعة، وهذه الأمور تحدث وسنتجاوزها إن شاء الله.

تدخل عدنان قائلًا:

ـ لا أشعر إني مؤهل نفسيًا لعيش تلك الأجواء مرة أخرى.

فقالت خالته بتفهم:

- هذا شعور طبيعي يا حبيبي، خذ وقتك.

حزنت ريم من أجله، ثم قالت بحماس:

ـ عندي اقتراح، إذا سمحتم لي بقوله.

فنظروا لها باهتمام، فقالت وهي تنظر إلى عدنان:

ـ لِمَ لا تبدأ نشاطًا جديدًا هنا في أجواء جديدة تمامًا عن الماضي، كبناء قرية سياحية مثلًا.

صمتت خالته لثوان، ثم قالت بتأييد:

ـ فكرة ممتازة يا ريم، أنا أرحب بها بقوة، ما رأيك يا عدنان؟

فقال مستحسنًا الفكرة:

ـ وأنا أؤيد هذه الفكرة، أيضًا.

فقالت خالته بسعادة:

ـ وقطعة الأرض موجودة، وموقعها ممتاز على البحيرة، لذا لن نضيع الوقت، وبعد الفطور سنتوجه لمعاينتها، فإن وافقت عليها، سأوجه الاستشاريين لعمل دراساتهم في الحال.

أصر عدنان على اصطحاب ريم معهم لمعاينة الأرض، وجلس بجوار السائق، بينما جلست ريم في المقعد الخلفي بجوار خالته، فكان عابس الوجه ناظرًا من نافذة السيارة بشرود، وكذلك خالته كانت ساهمة طوال الطريق، تنظر إلى الشوارع بلهفة وشوق، وعندما وصلوا، رأتها ريم تتأمل الأرض بحنين غلب عليه الحزن، وكأنها تلملم أطياف الذكريات بعينيها الدامعتين، فقالت ريم بحماس:

ـ بالفعل الموقع ممتاز، ما رأيكما به؟

فانتبها إليها، وردا في اللحظة نفسها:

ـ رائع.

ـ السلام عليكم.

التفتوا جميعًا إلى مصدر الصوت، فإذا به الحاج رشوان، وقد جاء محييًا قبل أن تنمحي الابتسامة عن وجهه، فخافت ريم أن يكون قد أتى لإثارة المشاكل ولاستكمال هجومه على عدنان الذي بدأه في عرس ابنه، فشحذت همتها لاستكمال الدفاع عن عدنان، فردت سلامه الذي لم يكمله:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، مرحبًا بك يا حاج رشوان.

لكنه لم يرد عليها، وبدا لها إنه لم يسمعها من الأساس، إذ قال موجهًا حديثه لفريال هانم:

ـ فريال ابنة عمتي؟ هل هذا معقول!

ذهلت ريم من المفاجأة، وتساءلت في سرها: هل يكون الحاج رشوان هو ابن خالها الذي حدثتها عنه من قبل؟ وبدا على وجهه امتزاج المشاعر بين فرحة وعدم تصديق، وسألها بصوت غلبه الحنين:

- كيف حالك يا فريال؟

فأخفضت فريال هانم عينيها لتخفي دموعها، وهي تحاول جمع شتات نفسها، وردت بصوت هامس:

ـ الحمد لله، كيف حالك أنت يا ابن خالي؟

فرد بصوت خنقته العاطفة:

ـ لا أعرف.

وصمت لبرهة، ثُمَّ سألها بلهفة:

ـ منذ متى وأنت هنا؟

فالتقطت الدمعة بمنديلها قبل نزولها، وردت بتلعثم:

ـ منذ أيام.

فبدا عليه الارتباك، قبل أن يسألها باهتمام:

ـ وهل سترحلين مجددًا أم ستبقين معنا؟

فردت على الفور:

ـ أحب أن أبقى معكم.

كان حوارًا ثنائيًا، ظنته بعيدًا عن أعين الناظرين، وعندما لاحظت نظرات ريم وعدنان إليهما، استدركت وقالت متلعثمة:

ـ أقصد، أنا باقية مع ابني عدنان، إذ نفكر في إقامة مشروع قرية سياحية، هنا على هذه الأرض.

وأحاطت عدنان بذراعها، فالتفت إليه الحاج رشوان بدهشة، وهو يرى تشبث خالته به، وقولها عنه "ابني عدنان" فما كان منه إلا مد يده إليه مصافحًا، وقال:

ـ مرحبًا يا بُني، أنا خالك رشوان، ابن خال أمك.

فنقل عدنان العصا من يده اليمنى إلى اليسرى، ووضع يده بيده الممدودة له، وقال:

ـ تشرفت بمعرفتك يا خالي.

ـ كيف حال جرحك؟

فدهش عدنان من قوله، لكنه رد بهدوء:

ـ الحمد لله.

ونظر الحاج رشوان حوله، وقال:

ـ فكرة القرية السياحية رائعة، هنا نماذج مشابهة ناجحة، كما إن موقع هذه الأرض مميز جدًا، لذا سيكون نجاح مشروعك مضمونًا بإذن الله.

والتفت حوله، ونادى بفرح:

ـ يا فارس! احضر كراسٍ من عندك، وتعال.

فأقبل شاب من تحت شجرة على البعد يحمل كرسيين معه، يتبعه صبي صغير يحمل كرسيين آخرين، فقال لفريال هانم:

ـ هذا ابني الأصغر فارس، سلِّم على عمتك فريال، وعلى ابن عمتك عدنان.

فانكب على يديها يقبلهما، فربتت على كتفه وقالت:

ـ مرحبًا يا بُني.

وسلم على عدنان بحرارة، وأومأ برأسه لريم، ثُمَّ جلسوا حيث أشار الحاج رشوان، فسألته فريال هانم:

ـ هل لديك أبناء غيره؟

ـ لديَّ ابنة وهي متزوجة.

وتنهد قائلًا:

- اسميتها فريال.

فلمعت الدموع في عيني فريال هانم، فتابع بشجن:

ـ تشبهك كثيرًا.

وغالب دموعه أمام ابنه، فصرفه قائلًا:

ـ هيا يا فارس أخبرهم في البيت أن يعدوا الغداء لضيوفنا الغوالي.

فقالت فريال هانم:

ـ أرجوك ، لا داعي للغداء لقد تناولنا الفطور قبل أن نأتي إلى هنا مباشرة.

فقال بابتسامة صافية:

ـ إذًا ، سنأكل شيئًا تحبينه مع الشاي، أعرف أنك تحبين الفطير.

فسألته بخجل:

- أما زلت تذكر؟

- كيف لا أتذكر؟

فنظرت بارتباك نحو عدنان، وقالت بتلعثم:

ـ لا بأس إذن.

ـ بسرعة يا فارس.

وخيم عليهم الصمت للحظات، فقال الحاج رشوان بحماس:

ـ لدي ابن آخر، ابني الاكبر اسمه توفيق، على اسم خالك.

ونظر إلى ريم، وأضاف:

ـ ولقد قابلتُ الأستاذة في ليلة عرسه، حين تشاجرت مع الطبيب سامي من أجل عدنان.

فنظر لها عدنان باستفهام:

ـ من أجلي أنا؟

فنظرت ريم للحاج رشوان بعتاب، فعدَّل من كلامه، وقال:

ـ تعلم كم كان شديدًا حب أهل القرية لك، لذا غضبوا منك عند سماعهم بالحادث دون تحقق، ومنهم من هدد سامي بالمقاطعة إذا تعامل معك، فجاءت الأستاذة، وقالت مقالة عظيمة في حقك، فألجمت الجميع، وتركتنا نستصغر أنفسنا.

نظرت فريال هانم إلى ريم بامتنان، ثُمَّ قالت للحاج رشوان وهي تربت على كتف عدنان:

ـ كان حادثا قدريًا، لم يتدخل عدنان فيه، وأثبتت الكاميرات ذلك، وقد برأته المحكمة.

فلمعت عينا الحاج رشوان من المفاجأة من قولها، وقال بسعادة:

ـ حمدًا لله على براءتك أمام الله، وهذا هو المهم، وسامحنا فكلنا قد ظلمناك.

تنهد عدنان بأسى، وقال:

ـ الحمد لله على كل حال.

فقالت فريال هانم بتصميم:

- أرجو منك أن توضح هذا لأهل القرية، عدنان ابني بريء.

فبادر الحاج رشوان قائلًا بتأكيد:

- طبعًا سأفعل، فهو ابني أيضًا.

صمت الحاج رشوان قليلًا، ثُمَّ قال ليغير هذا الحديث المليء بالشجن:

ـ عندنا مناسبة اليوم، سيأتي الصائغ لننتقي شبكة عروس فارس.

فسألته فريال هانم بسعادة:

ـ حقًا؟ مبارك عليكم، لكن هل تبدلت العادات هنا؟ ألم تكن العروس هي التي تنتقي شبكتها؟

فضحك الحاج رشوان وقال:

ـ أبوها قال الشبكة هدية العريس، وترك له أن ينتقيها على ذوقه، لذا أتمنى أن تشرفينا بانتقائها.

صمتت فريال هانم، وقالت بانهزام:

ـ لتقم أمه بذلك.

فصمت لثوان، ثُمَّ قال:

ـ أمه توفاها الله، منذ عامين.

فارتبكت، وقالت بخجل:

ـ أعتذر عن قولي، صدقني لم أكن أعلم.

ـ من أين لك أن تعلمي؟ الصلات كانت مقطوعة.

وصمت قليلًا، ثُمَّ تابع:

ـ علمت أنك ترملت منذ أكثر من عشر سنوات.

ـ كيف عرفت؟

ـ كنت أتلمس أخبارك من بعيد.

فصمتت ثوان، ونظرت أرضًا، ثُمَّ سألته باهتمام:

ـ بمن تزوجت؟

فتفاجأ من سؤالها، وأمام ترقبها، أجاب بتردد:

ـ بهية.

فامتقع وجهها، وسألته باتهام:

ـ ابنة خالتك؟

فبدا على وجهه الارتباك، ثُمَّ قال بدفاع:

ـ أبي أرغمني على الزواج.

فقالت على الفور باتهام:

ـ أرغمك! بهية كانت جميلة جدًا.

فابتسم برضا، بعد أن لاحظ غيرتها، وعدنان يتابع حوارهما باهتمام، فلاحظ الحاج رشوان ذلك، وقال ليغير الموضوع:

ـ لقد كنت أهتم بأرضك الزراعية الموجودة شرق القرية، ومعي حساباتها وأرباح بيع محاصيلها، إن سمحتم لي سأمر عليكم.

فقاطعته بصوت ما يزال تشوبه الغيرة:

ـ أنت مرحب بك في كل وقت، لكن أرجو أن تعتبرها هديتي لفارس.

ـ الحق حق يا ابنة عمتي، أما هديتك لفارس بأن تنتقي له شبكته.

فصمتت، فتابع برجاء:

ـ سأتصل بالصائغ ليحضرها إلى هنا الآن.

فتنهدت قائلة بهدوء:

ـ حسنًا إذن.

جاء فارس بالفطير، والعسل الأسود، وعسل النحل، وأكثر من نوع من الجبن القديم، ثُمَّ فرش مفرشًا على الأرض، بينما قام الحاج رشوان بمساعدة عدنان على الجلوس أرضًا، مستندًا بظهره إلى الشجرة، وجلست خالته بجواره وجلست ريم على يمينها، وجلس الحاج رشوان قبالتهم، وقطع قطعة كبيرة من الفطيرة، وناولها لفريال هانم، فأخذتها منه بصمت، ولاحظت ريم إشراق وجهها وكأنها في العشرين من عمرها، كانت تتناول الفطير بشهية وكذلك الحاج رشوان، أما عدنان فكان كثير الشرود، فقالت له ريم لتجبره على الاندماج معهم:

ـ جاءتني فكرة بخصوص الإعلان عن مشروع القرية السياحية.

فنظر لها باهتمام، فقالت:

ـ أقترح أن تقوم فريال هانم بالظهور في الإعلان مرتدية الجلباب، وتتناول الفطير معك في مثل هذه الأجواء، سيكون هذا بمثابة تصريح غير مباشر

بقوة علاقتك بخالتك، وفي الوقت نفسه ترويجًا قويًا للقرية، حين تقوم أشهر سيدات الأعمال باختيار الفيوم وتفضيلها على غيرها من المدن.

فقال الحاج رشوان بشجن:

ـ فكرة جميلة، لكن الجلباب لن يليق بها، الجلباب له ناسه.

فلمعت عينا فريال هانم بالدموع، وقالت بعتاب:

ـ الجلباب ثوبي وثوب أمي، وإن ارتديت غيره ظاهريًا.

فلمعت عينا الحاج رشوان بالدموع، فقال عدنان:

ـ أعتقد إنها فكرة جيدة أيضًا، إن وافقت عليها خالتي.

فقالت خالته بغضب طفولي:

ـ طبعًا أوافق، وفكرة الجلباب ستكون رائعة.

فأشرق وجه الحاج رشوان من السعادة وقال:

ـ وأنا سأشارك بإعداد المكان، وإعداد الطعام الفلاحي.

ثُمَّ أخرج هاتفه المحمول من جيبه، وقال لعدنان:

ـ سأنتظر منك مكالمة بالموعد، وأنا سأرتب كل شيء، أعطني رقم هاتفك المحمول.

بعدما انتهوا من تناول الغداء حضر الصائغ، فعرفته ريم على الفور، وبعد أن قام بعرض الأطقم الذهبية أمام فريال هانم، نظر إلى ريم فتذكرها، وحياها ببشاشة قائلًا:

ـ مرحبًا يا ريم، مازلت أحتفظ لك بالخاتم، كما وعدتك.

فاصفر لونها، وخافت أن يذكر مزيدًا من التفاصيل حول بيعها للخاتم، فقالت بتهذيب:

ـ شكرًا... شكرًا لحضرتك.

وحاولت تغيير الموضوع، فقالت لفريال هانم:

ـ أراك تميلين لهذا أكثر من غيره.

فقالت بابتسامة:

ـ نعم، ما رأيك به؟

ـ اختيار موفق.

بعد عودتهم إلى القصر، نزل السائق من السيارة ومعه أكياس بها الفطائر والجبن والعسل، أرسلها الحاج رشوان كهدية لفريال هانم التي آثرت البقاء في غرفتها حتى الصباح.

(الفصل الثامن)

(المكافأة الصادمة)

في اليوم التالي استيقظت ريم مبكرًا، وبينما وقفت تعد الشاي، تذكرت بندم أنها لم تذهب إلى معتزة بالأمس كما طلب منها سامي، ففكرت أن تذهب لزيارتها بعد أن تنتهي من تقليب الأرض مع أحمد، وبعد أن أنجزا هذه المهمة، حمل أحمد الأدوات إلى الركن الخاص بها، ووقفت ريم تنتظره، فسمعت صوت عدنان من خلفها:

ـ صباح الخير يا ريم.

فالتفتت إليه، كانت أشعة الشمس تخترق شعره الحريري، وأحالت لون عينيه إلى لون الفضة، فأخفضت رأسها لتغض بصرها عنه، وتظاهرت بتنفيض يديها من الأتربة، وردت بهدوء:

ـ صباح الخير.

فقال وهو يمد يده لها وبها علبة من القطيفة الحمراء:

ـ تفضلي.

فسألته بدهشة:

ـ ما هذه؟

فتنهد قائلًا:

ـ كنت أود أن أقول هدية، لكن هذا حظي معك، دائما تعجزينني عن الشكر.

ولم يضف شيئًا، فأخذت العلبة، وفتحتها بفضول، فبرق خاتمها بداخلها، فسألته وهي تتأمل الخاتم بجنين:

- كيف وصل إليك؟

ـ سمعت حوار الصائغ معك بالأمس عن الخاتم، فظننته خاتمًا عاديًا أعجبك، فأردت أن أصنع لك مفاجأة وأهديه لك، فأخذت رقم الصائغ من خالي رشوان، وعندما اتصلت به فاجأني بقوله إنه خاتمك، وأنك قمت ببيعه بعد أن رآك قادمة من الصيدلية التي أمامه.

وصمت، ثُمَّ أضاف بلوم ممزوج بالامتنان:

ـ كيف تقومين ببيعه وهو يحمل اسمك واسم أبيك من أجل شخص لا تعرفينه؟

فردت بعفوية:

ـ لأنك تستحق.

فبدا على وجهه التأثر من ردها، فاستدركت قائلة لتداري إحراجها:

ـ أقصد مهما كان غاليًا ممكن أن يعوض أما أن...

وصمتت مجددًا، فقد شعرت بعدنان كمحقق يستخرج الاعتراف ممن أمامه، فسألها عدنان بتردد:

- منذ متى وأنتِ تعرفين بأمر الحادث؟

لاحظت ريم تكدره وهو يسألها، فردت بحذر شديد:

- في تلك الليلة عندما لم يأتِ سامي ليغير لك الضمادة، وذهبت لاستدعائه.

فملأ الحزن عينيه، وأخذ نفسًا عميقًا، ثم سألها بحزن:

- لماذا لم تهربي مني كالآخرين؟!

فلمعت الدموع في عينيها، وسألته بدورها:

- لِمَ أهرب منك؟

فتنهد بحزن، وسألها بألم:

- ألم تخافي مني؟

فسالت دموعها، وسألته بلوم:

- ولِمَ أخاف منك؟

فلمعت عيناه بالدموع، وهَمَّ بالكلام، فقاطعه صوت سامي:

ـ مرحبًا عدنان.

فجلس على المقعد الحجري، وقد علا وجهه الضيق، وتمتم قائلًا:

ـ مرحبًا.

فشعرت ريم بخيبة أمل لضياع هذه اللحظة التي انتظرتها طويلًا ليفتح فيها عدنان قلبه، ويحدثها عن الحادث بنفسه، وانتبهت إلى سامي وهو يتابع:

ـ هل نسيت موعدنا اليوم يا عدنان؟ لم أجدك بغرفتك كما اتفقنا بالأمس.

ونظر إلى ريم بعتاب وقال:

- يبدو أن الكل ينساني، كان بيننا موعد بالأمس أيضًا يا ريم.

امتقع وجه عدنان، وأخذ يضرب بعصاه على الأرض بهدوء، فارتبكت ريم وقالت لسامي:

ـ أنا حقًا آسفة، كانت أحداث الأمس كثيرة ومتسارعة.

ـ مرحبًا.

التفتوا إلى مصدر الصوت النسائي، وإذا بها سهام، فتهيأت ريم للدفاع عن عدنان، غير أنها سمعت سهام تقول بمرح، وهي تنظر إلى عدنان:

ـ مرحبا دندو.

فنظرت ريم إليه، فوجدت وجهه وقد علته ابتسامة صافية، وقد تغير حاله في ثوان، وقال:

ـ حمدًا لله على السلامة.

تذكرت ريم كلام فريال هانم عنها؛ بأنها تثور كالبركان ثُمَّ تعود تبتسم وتعتذر، أشار سامي لريم، فانسحبت بحزن إلى أن ابتعدا قليلًا، فقالت لسامي:

ـ لا يجب ان نبتعد كثيرًا، أنت لم ترَ ماذا فعلت هذه الفتاة في المرة السابقةً.

فقال بابتسامة:

ـ أنا لمَ أرَ عدنان سعيدًا لرؤية أحد، كما سعد لرؤية هذه الفتاة، تُرى من تكون؟

حزنت ريم مما قال، لكنها وافقته الرأي في سرها، وقالت:

ـ هي ابنة خالته، اسمها سهام.

ـ قد تكون له أكثر من مجرد ابنة خالة.

شعرت ريم وكأن يدًا تعتصر قلبها بسبب تعليق سامي، فتركته في الحديقة في انتظار عدنان، وذهبت إلى معتزة، وحدثتها عن رغبة سامي في الارتباط بها، فأبدت سعادة أكبر مما تخيلت، وطلبت منها أن يتحدث بخصوص هذا الشأن مع أخويها.

عند عودتها إلى القصر، وجدت سامي ينتظرها بالحديقة، فأخبرته برد معتزة، فملأت وجهه السعادة، لكنها استشعرت أن هناك شيء آخر يربكه، وليُخفِ ارتباكه قال:

ـ كنت أتحدث مع عدنان منذ قليل بعد أن تركته سهام، لقد تبرع للمركز بالأجهزة الطبية، هل تتخيلين هذا، هل تعرفين قيمة هذه الأجهزة؟

فقالت ريم، وهي سعيدة لسعادته:

ـ مبارك، أنت تستحق الخير.

وصمت، وبدا عليه الارتباك مجددًا، فسألته باهتمام:

- ما الأمر؟ أشعر أن هناك شيء آخر يؤرقك.

فتردد قليلًا، ثُمَّ أضاف:

ـ سألني عدنان، ما الذي يؤخر خطوة زواجي، فأخبرته أني أملك قطعة أرض، لكن لا أملك تكاليف بناء بيت عليها، فأخبرني أنه سيبنيها على نفقته الخاصة، وسيأمر المهندسين في شركته بإنجاز ذلك في أسرع وقت.

فقاطعته ريم بحماس:

ـ سبحان الله! يبدو أن كل شيء ميسر.

غير أن تعبيرات وجهه لم تعجبها، فسألته:

ـ ما المشكلة إذن؟

فأخذ نفسًا عميقًا، وقال بإحراج:

- عندما شكرته، قال إنه إنما يفعل ذلك في المقام الأول من أجلك أنت.

فسألته بعدم فهم:

- من أجلي أنا؟ وما شأني أنا بهذا؟

فتردد قبل أن يقول بهمس:

ـ يعتقد أنك أنت العروس، لذا يريد أن يرفع أي عقبات من طريق ارتباطي بك، هكذا قال لي بالضبط.

بهتت ريم، وفقدت القدرة ليس فقط على الرد، بل على الإحساس، فقد شعرت بأطرافها وقد تخدرت، فنظر لها سامي بقلق، وهو يرى الحزن

الصامت يكسو وجهها، وارتبك عندما لاحظ الدموع في طريقها لعينيها، فسألها بلطف:

ـ ما الأمر؟ لماذا أنت متضايقة الآن؟

فلم تعرف بماذا ترد، فهي نفسها لا تعرف لماذا تموج داخلها كل هذه الموجات الغاضبة غير المفسرة، غير أنها قالت بانهزام:

ـ أشعر بالإهانة.

ـ لماذا يا ريم؟ من الواضح أنه يريد أن يكافئك، كما فعل معي.

فسالت دموعها، وقالت بصوت مبحوح:

ـ لقد فعلت كل شيء من قلبي، من قال له إني أريد مكافأة؟

واستأذنته، وذهبت إلى البيت الملحق بخطى مرتبكة، وما إن أغلقت الباب حتى أجهشت ببكاء مرير، حاولت عبثًا إيقاف دموعها، غير أن قلبها لم يأذن لها بالتوقف حتى تكف عن تجاهل ما يحمله في طياته تجاه عدنان، وحتى تعترف أن بكاءها إنما لأنه يريد إزالة العقبات أمام زواجها من شخص آخر، غيره، شعرت ريم بالخجل من نفسها من الاعتراف بحبه، إذ كيف تحبه؟ ولماذا تحبه؟ هل تعرف من يحب؟ أو ماذا يحب؟ ما الذي زج بها وسط هذه المعادلات المعقدة التي لا يعطي ناتجها النهائي سوى صفر؟

تظاهرت ريم بالنوم هربًا من تناول الغداء معهم، وحاولت فعل الشيء نفسه عند العشاء، إلا أن أمها أرسلت أحمد يستدعيها لتساعدهم، فما كان منها إلا أن ذهبت معه على مضض، وما إن انتهت من ترتيب طاولة الطعام،

حتى طلبت منها أمها أن تدعو فريال هانم وعدنان وسهام لتناول العشاء، وسمعت صوت ضحكات منبعثة من غرفة المكتب، فوقفت لدى الباب، إذ فوجئت بعدنان يحاول أن يمشي بدون العصا بمساعدة سهام، التي قالت بخبث وهي تنظر إلى ريم:

ـ انظروا، في وجودي عدنان لم يعد محتاجًا لا إلى عكاز ولا إلى أحد.

لاحظت فريال هانم وقوف ريم، فسألتها بفرحة:

ـ تفضلي يا ريم، هل تريدين شيئًا يا حبيبتي؟

ـ لا.

والتفتت عائدة إلى الصالة، فاستدركت قائلة وهي توجه الكلام إلى فريال هانم:

ـ بل نعم، العشاء جاهز، تفضلوا.

وعندما جلسوا على طاولة الطعام، همَّت ريم بالذهاب، فأشار عدنان إلى الكرسي بجوار سهام، وقال لها:

ـ اجلسي يا ريم.

فنظرت له بغضب مكتوم، وعندما لمحت الحزن يسكن عينيه أجفلت قليلًا، ثُمَّ قالت بهدوء يتناقض مع غضبها منه:

ـ لا أشعر بالجوع.

فكرر بتصميم:

ـ اجلسي معنا، رجاءً.

فأخذت نفسًا عميقًا، ولم تجلس حيث أشار وإنما وقفت بجوار أمها، فقام لها أحمد عن الكرسي المجاور لأمها، وجلس في الكرسي الذي يليه، فجلست بصمت، لم تدرِ سبب حزن عدنان، هل أتعبته سهام بالمشي بدون العصا؟ كانت فريال هانم تحكي بحماس عن فكرة ريم الخاصة بالإعلان عن القرية، فأبدت سهام الاستحسان للفكرة، وقالت فريال هانم لأمها:

ـ يا فوزية! أخبرتني ريم أنك تجيدين خياطة الملابس.

ـ نعم.

وبدا عليها التردد قبل أن تقول:

ـ أريد أن تخيطي لي بعض الجلاليب.

ـ لكِ أنت؟

ـ نعم.

فسألتها سهام:

ـ من أجل الإعلان؟

فردت بخجل:

ـ من أجل الإعلان ومن أجل البيت أيضًا، أنا أحب ارتداء الجلاليب، وهنا لا توجد تعقيدات الحياة التي أعيشها بالقاهرة حيث الضيوف والمقابلات، لذا أفضل ارتداء الجلباب طوال فترة إقامتي هنا.

رفعت سهام حاجبيها، وقالت:

ـ لا أتخيل ذلك.

فتابعت فريال هانم كلامها متجاهلة تعليق سهام:

ـ هل تذكرين ذلك الموديل الواسع، الذي له كورنيش من فوق وعلى الذيل.

فضحكت أم ريم، وقالت:

ـ طبعًا، عندي واحدة أعددتها من قبل، سأُريها لك بعد العشاء.

- وهل تعرفين أحدًا يبيع الدجاج البلدي؟

فسألتها فتحية باهتمام:

- هل تشتهين أكل الدجاج البلدي؟

فردت بابتسامة:

- لا، بل أريد دجاج يبيض، حتى أقوم بجمع البيض كل صباح كما كنت أفعل في صغري.

فضحكت أم ريم، وقالت:

- هذا شيء يسير، الفيوم بلد البيض البلدي، هل تكفي خمس دجاجات؟

ضحكت فريال هانم، وقالت:

- لا، بل احضري عشرين أو ثلاثين.

وضحكتا معًا، أما ريم فقد ظل كلام سامي يتردد في ذهنها، فتجدد حزنها من عدنان، خاصة وهي تسمع ضحكات سهام معه بدون سبب، كانت تشعر بغيرة وغضب كافيان لأن تقلب طاولة الطعام فوق رأسيهما، أنقذتها أمها من أفكارها التدميرية، إذ قالت بصوت خفيض:

ـ ريم! أين وجدت الخاتم؟

فنظرت ريم إلى الخاتم بصمت، وقالت بلا حماس:

ـ عاد إلى مكانه، مثلما يعود كل شيء إلى مكانه.

قالتها بصوت خفيض ظنته كافيًا لئلا يسمعه أحد، لكن عدنان كان يرهف السمع لحوارهما، وسألها بقلق:

ـ ماذا تقصدين بذلك يا ريم؟

فنظرت له بصمت، ولاحظت أن ملامح وجهه مشدودة من التوتر الذي بدا واضحًا في عينيه، وعندما لم ترد على سؤاله، تدخلت أمها قائلة:

ـ خاتم ريم، كان ضائعًا منها ووجدته.

ففاجأها عدنان بقوله:

ـ لم يكن ضائعًا، لقد باعته ريم من أجلي، لتشتري لي الدواء.

نظرت له ريم بغضب لأنه أظهر كذبها أمام أمها التي نكست رأسها بحزن، وهي تغمغم:

ـ لم تكن لدي أدنى فكرة عن ذلك.

فتنهد عدنان قائلًا:

ـ ولا أنا، فقد أخبرني الصائغ بالأمس فقط.

عم الصمت للحظات، ثُمَّ قالت فريال هانم بتأثر:

ـ ريم، لقد أخجلتنا بكرمك.

فأضاف عدنان بشجن:

ـ كل أفعال ريم، لا تقدر بثمن.

فواتتها الفرصة أخيرًا لتنفث عن غضبها منه بسبب عرضه الذي عرضه على سامي وقالت بعصبية:

ـ إن كنت تراها كذلك، لماذا تهيننني بالإصرار على دفع ثمنها؟

فعقد حاجبيه، وسألها بعدم فهم:

ـ ماذا تقصدين؟

فوقفت غاضبة، وهي تقول بحدة:

ـ ماذا تقصدين؟ ماذا تقصدين؟

قالت أمها بحزم:

ـ ريم، اسكتي.

فتسلل لريم غضب أمها الدفين عبر هاتين الكلمتين، فكانتا كافيتين لإسكاتها، فتدخلت فريال هانم، وهي مذهولة من تحول ريم المفاجئ:

ـ اجلسي يا ريم من فضلك، يا الله! لم أرك غاضبة هكذا من قبل.

لاحظت ريم مدى سخافتها عندما رأت أمها تنكس رأسها خجلًا من ثورتها، فجلست على استحياء، ونظرت إلى طبقها محاولةً لضبط أعصابها، فقال أحمد موضحًا:

ـ ريم لديها طبيعة غريبة بعض الشيء، إذ تستثقل شعور الناس تجاهها بالامتنان، كانت تقدم لصديقاتها الهدايا وتبتعد لحظة فتحهن لها، هربًا من نظرات الشكر والامتنان، حتى معي تفعل الشيء نفسه، أعتقد إن هذا هو سبب غضبها.

فضحكت فريال هانم قائلة بلطف:

ـ ما أجملها من طبيعة، لكن يجب أن تعذري عدنان يا ريم، نحن ننتمي لعالم نسي هذه اللفتات الطيبة، عالم لا يعرف سوى الأنانية والمصالح، لذا لا عجب أن ينظر إلى كل ما تقدمينه له بالانبهار والامتنان، أليس كذلك يا عدنان؟

لم يرد عدنان، فقالت ريم بصوت مهزوم:

ـ الحمد لله أنني لا أنتمي إلى عالمه.

فغام وجهه لقسوة ردها، فلاحظت خالته هذا، وربتت على يده ليهدأ، ثم قالت بلطف:

ـ انسوا الأمر يا أحبائي، وتناوِلوا عشاءكم.

قربت سهام طبق المكرونة من عدنان، وقالت لتلطف الأجواء التي وترتها ريم:

ـ أغرب ما سمعته من ماما أنك اصبحت تأكل المكرونة، كيف هذا يا عدنان؟ لم تكن تطيقها منذ أن كنا أطفالًا.

لم تصدق ريم ما سمعته، وسأله أحمد عما ثار داخلها من تساؤلات:

- لماذا إذن تركت ريم تعدها لك يوميًا؟

فقال بشجن، وعيناه تلمعان بالدموع:

ـ لأني أحببتها، هذا كل ما في الأمر.

هزها رده الغامض، فسكنت له جوارحها، وهدأت أعصابها، وانقطعت تمامًا عنهم، إلى أن انتبهت لأصوات الملاعق والسكاكين وفتحية تقوم برفعها عن الطاولة، فلاحظت أن الآخرين قد انتهوا من تناول العشاء، وغادروا دون أن تدري.

بعد أن غسلت ريم الأطباق، انتهزت فرصة تواجد أمها مع فريال هانم في غرفة المكتب لتريها الجلاليب، وانسحبت خارجة من باب المطبخ متوجهة إلى البيت الملحق، ففوجئت بعدنان يجلس مع سهام في الحديقة، فاضطرت للمرور من أمامهما دون النظر إلى أيٍّ منهما، فاستوقفها عدنان:

ـ ريم!

فأخذت نفسًا عميقًا، ثُمَّ التفتت نحوه، فقال:

ـ تعالي من فضلك.

فترددت لثوان، ثُمَّ اقتربت منهما، فقال لسهام:

ـ سهام! هلّا تركتنا قليلًا.

فقامت سهام على مضض، ووقفت أسفل إحدى الأشجار القريبة تنظر إليهما، فقال عدنان لريم بصوت خفيض:

ـ ما معنى كلامك على العشاء؟ ماذا قصدت بدفع الثمن؟

صمتت ريم، فأضاف بتأكيد:

ـ لا أظنك كنت تتحدثين عن إعادة الخاتم، لأنك لم تكوني غاضبة هكذا عندما رددته لك في الصباح.

فنظرت أرضًا، وصمتت طويلًا، فبدت عليه الحيرة أمام صمتها، ثم عقد حاجبيه وسألها وهو يضيق عينيه:

ـ هل حدثك سامي عما دار بيني وبينه بخصوصكما؟

فتجدد غضبها لكنها كظمته، ولم ترد أيضًا، فنظر بعيدًا، وقال بضيق دون أن يرفع صوته:

ـ كان من المفترض أن يكون ذلك سرًا بيني وبينه، يبدو أنه لا يستطيع إخفاء أي شيء عنك.

فانفجرت ريم في وجهه مجددًا كبركان ينفث عن حممه:

ـ كيف تحدثه في أمر كهذا؟ ألا تتخيل مدى الإحراج الذي عرضتني له أمامه.

فعبس وجهه، وقال بدفاع:

ـ لم أنظر إلى الأمر هكذا إطلاقًا، إنما أردت...

وصمت لثوان، وملأ الألم عينيه قبل أن يقول:

ـ أردت أن أقرب منك السعادة، وألا أدعك تنتظرينها طويلًا.

فلمعت الدموع في عينيها، وسألته بصوت مهزوم:

ـ وهل نجحت في تقريبها؟

لم يرد عدنان، وقد هالته رؤية دموعها، فهَمَّت بتركه، فقال برجاء:

ـ ريم، لا تتركيني هكذا، وأنا أتحدث إليك.

فوقفت أمامه، ونظرت أرضًا لكي تتمالك دموعها، فقال بتردد:

ـ ليتني أعرف فيم أخطأت أنا؟ لماذا لم يثُر سامي مثل ثورتك؟ أنت تبالغين في ردة فعلك.

فأخذت نفسًا عميقًا، قبل أن تقول بألم:

ـ إن كنت أنهيت كلامك فأنا أود الذهاب.

ـ ليس قبل أن تخبريني جديًا لِمَ كل هذه الثورة؟ أنا لا أفهم.

فثارت في وجهه، وقالت بغضب:

ـ لأن سامي لا يحبني، ولا أحبه كما تظن، ولا شيء بيننا سوى الأخوة والاحترام.

فنظر لها بذهول، فتابعت وهي تمسح دموعها بضيق:

ـ لا أعرف على أي أساس بنيت هذا الاعتقاد.

صمت للحظات، وقد بدت تعبيرات وجهه محيرة لها، ثُمَّ قال بهدوء، وكأنه يحدث نفسه:

ـ كنت أرى سعادة غير عادية تنير وجهك عندما كان يأتي سامي إلى القصر، وخاصة في أيام معرفتي الأولى بكما.

فقالت بدفاع:

ـ ذلك لأنه كان يحارب شعوره بالواجب تجاهك من جهة، وبالتهديد من أهل القرية من جهة أخرى، فكنت أفرح لانتصاره على نفسه وانحيازه إلى الحق.

ففكر قليلًا، ثُمَّ قال:

ـ اليوم أيضًا، عاتبك لأنك نسيت موعده...

فقاطعته بانفعال:

ـ طلب مني أن أذهب إلى معتزة صديقتي بالأمس لأخبرها برغبته في التقدم لخطبتها، لكني ذهبت إلى البحيرة ونسيت أمرها.

بُهت عدنان، ولم يعقب، وقد بدا على وجهه تعبير غامض، لكنه نظر أرضًا قبل أن تتبينه ريم، فقالت بانهزام:

ـ أعتقد أني يمكنني الانصراف الآن.

وتركته، ومضت تجاه البيت الملحق، ثم اندست في سريرها بهزيمة، وسالت دموعها رغمًا عنها، وسألت نفسها: هل حقًا أراد عدنان أن يسعدها بتيسير زواجها من سامي أم يريد أن يبعدها عن طريقه؟ تراه شك أنها تحبه فلا يريد لها أن تعيش في الأوهام؟ بكت بحرقة إزاء هذا التصور، لقد ظنت واهمةً أنه قد يشعر بحبها، غير أن شعوره نحوها إنما كان تعلقًا، كتعلق الغريق بالقشة، وتساءلت بحزن: هل حقًا كانت هي القشة؟ أم أنها غريقة مثله؟ غير أن غرقها أكثر عمقًا، لأنها غريقة نفسها، نفسها التي زجت بقلبها البريء في بحار مظلمة، وسط أمواج مهلكة.

سمعت ريم صوت المفتاح في الباب، وعندما أنارت أمها الأنوار، ودخلت ومن ورائها أحمد، تظاهرت بالنوم.

الفصل التاسع

(المواجهة العاصفة)

استيقظت ريم بعد نوم متقطع، فنظرت إلى هاتف أمها المحمول لتعرف الساعة، فوجدت رسالة من المدرسة تخبرها بموعد المقابلة في الغد في الساعة الواحدة ظهرًا، فتضاربت داخلها المشاعر، بين رغبة في الرحيل، فرارًا من حبها لعدنان وبين حزنها على فراقه، لكنها تقبلت ذلك التدبير القدري، وقالت لنفسها: لا يمكن أن تأتي هذه الرسالة مصادفة، بل ربما كانت إشارة لحتمية الرحيل.

فغسلت ملابسها استعدادًا للمقابلة، وتركتها لتجف أمام المروحة، وعندما استيقظت أمها أخبرتها بأمر الرسالة، فبدا على وجهها الارتياح، وأعطتها هاتفها المحمول، لكي تطمئن عليها من الهاتف المحمول الخاص بفتحية، وأخبرتها ريم أنها ستذهب للمقابلة مباشرة دون المرور على القصر، فوافقت بهدوء، وتركتها لتستعد، وذهبت مع أحمد، تفقدت ريم ملابسها التي غسلتها، فوجدت البلوزة ماتزال غير جافة تمامًا، فاضطرت لارتداء الفستان الوردي من مجموعة الملابس المهداة من عدنان، وقبل أن تخرج، طرق أحمد الباب، وأخبرها أن عدنان ينتظرها على الفطور، فتنهدت بضيق،

وذهبت إليهم على مضض، ونظر لها عدنان بعتاب وهي تجلس بجوار أمها وأخيها، ولاحظت نظرات سهام تجاهها، فاحمر وجهها خجلًا وهي تراها تنظر للفستان مطولًا، قالت لها فريال هانم بمرح:

ـ ريم! ألا تلاحظين شيئًا مختلفًا فيّ؟!

فانتبهت ريم للجلباب الذي ترتديه ، فقالت:

ـ يبدو لائقًا عليك حتى أني لم ألحظ أي اختلاف.

فتدخلت سهام قائلة:

ـ هل هذا مدح أم ذم؟

فردت فريال هانم بسعادة:

ـ هذا أجمل مدح سمعته في حياتي.

صمتت ريم، وهي تتفهم فرحة فريال هانم، لقد حزنت عندما أخبرها الحاج رشوان أن الجلابية لن تليق بها، فقالت سهام بغلظة:

ـ على الأقل الجلباب يمكن ارتداؤه على الفطور، أما هذا الفستان يا ريم فهو رسمي جدًا على أن تتناولي الفطور به.

احمر وجه ريم خجلًا، وقد انتبهت أن سهام ربما تكون صاحبة الملابس، لذا لفت انتباهها الفستان فور أن رأته عليها، فردت ريم مدعية الثبات:

ـ في الواقع أنا في طريقي للذهاب إلى مقابلة عمل رسمية، ولم أكن أنوي تناول الفطور من الأساس.

فسألها عدنان بانزعاج:

ـ أية مقابلة؟

فأخذت نفسًا عميقًا، قبل أن تقول بهدوء:

ـ مقابلة في مدرسة كنت قد تواصلت معها منذ فترة، أرسلت لي رسالة بالأمس بموعد المقابلة.

ـ أين؟

ـ في القاهرة.

واستأذنت للذهاب بهدوء، فاستوقفها عدنان قائلًا:

ـ انتظري يا ريم.

فنظرت له بصمت، فقال لخالته:

ـ هل يمكن أن أستعير سيارتك وسائقك من أجل توصيل ريم.

فصمتت خالته بتأثر، ووضعت يدها فوق يده:

ـ طبعًا يا حبيبي، السيارة تحت تصرفك، وسأطلب من السائق أن ينتظرها ليعود بها.

فقالت ريم بإحراج:

ـ لا داعي لذلك.

فقالت خالته بمرح خالطه الشجن:

ـ اسمعي الكلام يا بنت.

فنقلت نظرها بينهما، وقالت بامتنان:

ـ شكرًا لكما.

استأذنت ريم السائق لينتظرها قليلًا، ودخلت البيت الملحق، وعلى عجالة بدلت ملابسها، وارتدت ملابسها القديمة بدلًا من الفستان، بالرغم من عدم جفاف البلوزة.

اتصلت بها أمها أكثر من مرة لتطمئن عليها، فأخبرتها بسير المقابلة، وعند عودتها وجدت عدنان واقفًا أمام القصر يطعم القطط ومعه أحمد، وانتبه لحظة قدوم السيارة، فنزلت منها، وتوجهت نحوهما بينما حيَّاه أحدُ المارة، فنظر له عدنان بدهشة، ورد عليه بحفاوة، فسعدت ريم لذلك، ووقفت بجوارهما تتأمل القطط بصمت، كان عدنان لا يستخدم عصاه، فخافت عليه من طول وقوفه على قدمه، وقالت باهتمام:

ـ تعال لتجلس قليلًا.

فلم يمانع إذ كان يبدو عليه التعب، وسار بجوارها ببطء مستندًا إلى أحمد، وجلس بهدوء على المقعد الرخامي الموجود أمام البيت الملحق، بينما ظلت ريم واقفة، فقطع الصمت المتوتر أخيرًا إذ سألها:

ـ كيف كانت المقابلة؟

ـ كانت جيدة.

فنظر أرضًا، وقد تصلبت عضلات فكه، ثم سألها:

ـ ولماذا بدلت الفستان قبل ذهابك؟

فأخذت نفسًا عميقًا ولم ترد، فرفع رأسه ناظرًا إليها، وكرر سؤاله بلوم:

ـ لماذا يا ريم؟

وقبل أن ترد، قاطعهما صوت سهام على البعد:

ـ دندو.

فقالت ريم وهي تشير نحو سهام:

ـ بما إن صاحبة الملابس قد عادت، فهي أولى بها مني.

وتركته ودخلت البيت الملحق منفعلة، وأغلقت الباب بغضب، وأنفاسها تتلاحق وهي تسمع صوت سهام يلذعها:

ـ دندو، ألا تسمعني؟ أنت تجلس هنا وماما تبحث عنك؟

بعد قليل، رن الهاتف المحمول وكانت أمها المتصلة، فسألتها إن كانت عادت، وأخبرتها أن أبناء الحاج رشوان يزورون فريال هانم، ففرحت ريم من أجلها، وفاجأتها أمها إذ طلبت منها أن تبقى في البيت الملحق ولا تأتي إلا على العشاء، فتعجبت من طلبها في بادئ الأمر، وتصاعد ضيقها كلما مرت الساعات وهي محبوسة وكأنها معاقبة.

على العشاء، قالت لها سهام مُعَلِّقةً على ملابسها القديمة التي ترتديها:

ـ هذه الملابس تليق بك أكثر من أي شيء قمت بارتدائه من قبل يا ريم.

نظرت لها ريم بضيق، وقالت:

ـ أعرف ولذلك ارتديتها.

فوجئت ريم بأمها تدوس على قدمها لتصمت، غير أن سهام تابعت:

ـ ملابسك التي كنت ترتديها من قبل كانت غالية على أن ترتديها عاملة بالقصر.

احمر وجه ريم خجلًا، وكان الذي رد هو عدنان إذ قال بحسم:

ـ ريم ليست عاملة بالقصر، فلولا ريم ما قامت لهذا القصر قائمة.

فوجئت ريم من قول عدنان، حتى أنها لم تستطع أن ترفع عينيها وتنظر له حتى لا يرى السعادة وقد سكنتهما إزاء سماعها رأيه فيها، وسمعته يأخذ نفسًا عميقًا، ثُمَّ أضاف:

ـ لو أنك جئتِ قبل دخول ريم القصر، لما استطعتِ أن تخطي خطوة واحدة داخله، لما استطعتِ أن تجلسي فوق هذا الكرسي الذي تجلسين عليه.

قالت سهام بعناد:

ـ لم أقل شيئًا يستوجب ثورتك، ملاحظتي تخص الملابس، ذلك الفستان الذي كانت ترتديه في الصباح من أشهر دور الأزياء العالمية، فمن أين لها باقتناء مثله؟ وما معنى لولاها ما قامت للقصر قائمة، ما قامت إلا بتنظيفه، لمَ تجعلها تبدو وكأنها أعادت القصر إلى مالكه؟

فرد عدنان والدموع في عينيه:

ـ بل أعادت مالك القصر إلى نفسه.

فتدخلت خالته قائلة بحبٍ يتناقض مع نظراتها الغاضبة تجاه ابنتها:

ـ وأعادتني إلى عدنان، وإلى الفيوم، ما قامت به ريم لا يمكن لك أن تفهميه، ولا يمكن لأحد أن يقدره.

أخفضت ريم رأسها خجلًا، ولم تعرف بماذا ترد، فسألتها فريال هانم لتغير الموضوع، وهي ترمق ابنتها بغضب:

ـ كيف سارت المقابلة يا ريم؟

كانت ريم لا تزال مبهوتة من كلام عدنان عنها، وعندما ردت جاء ردها، مفككًا:

ـ لقد... كانت... جيدة.

ـ لم لا تعملين معنا في فريق التسويق؟ عندك أفكار مبتكرة في مجال التسويق والدعاية.

فتدخلت سهام معترضة:

ـ منذ متى نقبل بتعيين أي شخص كان في إدارة مهمة كإدارة التسويق؟

فتدخلت السيدة فوزية قائلة بحسم لتقطع على ريم الطريق للتفكير في العرض:

ـ ريم تحب التدريس، خاصة للأطفال.

نظرت فريال هانم لسهام نظرة محذرة، ثُمَّ نظرت إلى ريم، وقالت بسعادة:

ـ فاتك اليوم أن تقابلي أبناء الحاج رشوان، لقد جاؤوا لزيارتي.

لمحت ريم سعادتها، فسألتها بهدوء:

ـ كيف وجدتهم؟

ـ ودودون للغاية، ابنته فريال تشبهني بالفعل، وتوفيق طيب ومهذب مثل فارس، لقد أحببتهم جدًا.

وصمتت قليلًا وقالت لريم:

- لقد أحضرت أمك الدجاجات، وصنع النجار لهم بيتًا من السلك في الحديقة الخلفية، لا تفوتي رؤيتهم في الصباح.

ردت ريم بهدوء:

- إن شاء الله.

كان عدنان صامتًا تمامًا، فآثرت ريم الصمت مثله، حتى لا تكرر مهزلة الأمس، وبعد العشاء، غادروا طاولة الطعام، وذهبوا إلى المكتب، فهمَّت ريم بعمل القهوة، فطلبت منها أمها أن تترك ما بيدها، وتذهب إلى البيت الملحق، فسألتها ريم بدهشة:

ـ ما الأمر يا أمي؟ هل أنا معاقبة؟

ـ لستِ كبيرة على العقاب، ما دمت تأتين بأفعال الصغار.

همت ريم بالكلام، فقاطعتها أمها قائلة:

ـ لن نتحدث هنا، اسبقيني إلى البيت الملحق، وانتظري عودتي ولا تتظاهري بالنوم كما فعلت بالأمس.

انتظرت ريم أمها بتوتر، وتضاعف توترها عندما عادت أمها بمفردها وقد تركت أحمد بالقصر حتى لا يسمع حديثهما، وعندما جلست على الأريكة أمام ريم، قالت بغضب:

ـ لا يعجبني أسلوب كلامك مع سهام.

ـ لِمَ؟ هل أسأت الأدب معها؟

ـ لا أحب أن تظهري بمظهر الفتاة التي تتشاجر مع فتاة أخرى من أجل رجل.

ففتحت عينيها عن آخرها، وقالت باستنكار:

ـ ماذا تقولين يا أمي؟

ـ دعينا نتكلم بصراحة، لقد افتعلتِ شجارًا سخيفًا مع عدنان بالأمس مدعية أنك لا تريدين منه أن يدفع لك مقابل معروفك، غير أنك كاذبة.

نظرت لها ريم بذهول، غير أن أمها تابعت بغضب، وكأن الكلمات قد حبستها في صدرها كثيرًا، ولم تعد قادرة على إيقافها:

ـ نعم كاذبة، لأنك تريدين منه المقابل، تريدين منه ألا ينظر يمينًا ولا يسارًا بل يظل ناظرًا إليك بالامتنان، والولاء والتقدير أينما ذهبت.

نظرت لها ريم بصدمة، وقالت بحزن:

ـ ظننتك تعرفينني يا أمي.

ـ أجل أعرفك.

ـ لو كنت تعرفينني لعرفتِ أني لا أريد امتنان عدنان.

وصمتت قليلًا، واعترفت بضعف:

ـ أنا إنما أريد حبه، أنا أحبه يا أمي.

نظرت لها أمها بصدمة، وقد فاجأها اعترافها، فشتت الأفكار التي أعدتها لمواجهتها بها، وبصوت خالطته المشاعر المتضاربة ما بين حزن وشفقة وغضب فخرج مهزومًا، وهي تقول:

ـ لو أنك تحليتِ ببعض الحياء لما جرؤتِ على مصارحتي بذلك.

ـ لكنني بالفعل أستحي من مصارحتك بذلك، بل وأستحي من مصارحة نفسي، إنما أردت أن أوضح لكِ، أني لا تعجبني لعبة تبادل الأدوار بين الغني المحتاج الذي يشعر بالامتنان تجاه الفقيرة المحسنة، بل أنا أحبه من كل قلبي.

نظرت أمها لدموعها التي سالت على وجهها، وسألتها بصدمة:

- أوَ تبكين يا ريم؟ تبكين من أجل حب شاب، العيون التي تشرفت بالبكاء من خشية الله ومحبته، هل تُهان لمثل هذه التُرهات؟ وقلوب حفظة القرآن، هل تصبح محلًا لمثل هذه الأوهام؟

نظرت ريم أرضًا، فزادت دموعها تدفقًا، فتابعت أمها بصوت أقل حدة:

- هل يتحتم على كل شخص نساعده أن يحبنا يا ابنتي؟ وماذا بعد الحب؟ الزواج؟ وهل تعرفين عدنان حتى تتزوجي به؟ يا ابنتي نحن مختلفون عنهم، ألا ترين كيف أننا لا نفهم أغلب المواضيع التي يفتحونها أمامنا إلا بعد

قيامهم بالشرح والتبسيط؟ ما لنا وما لهم يا ريم، لهم عالمهم ولنا عالمنا البسيط.

سمعت ريم صوت المفتاح وأحمد يضعه في الباب، فكرهت أن يراها باكية، فوقفت وقالت وهي تمسح دموعها بانكسار:

ـ لا تقلقي يا أمي واطمئني، فأنا أعرف جيدًا أين موضع قدمي، أنا لا أنتمي إلى عالمه، فأنا ما زلت ابنة المنزل القديم الذي رغب عدنان في إزالته ذات يوم لأنه يشوه المنظر.

واندست في فراشها، ونامت باكية.

صلت ريم الفجر وأنهت قراءة وردها من القرآن، بينما جلس أحمد في أحد الزوايا يراجع ورده، فشعرت ريم بعدم الاتزان، فعادت إلى فراشها، وجلست مستندة بظهرها إلى الوسائد، ناظرة أمامها بشرود، فأعدت أمها الشاي بالنعناع، ثم جلست بجوارها تنظر إليها في تعاطف، فأخفضت ريم نظرها حياءً منها، وأخذت تعبث بخاتمها، فربتت أمها على كتفها، وأخفضت صوتها حتى لا يسمعها أحمد، وسألتها بلوم:

- لماذا لم تخبريني قبل قيامك ببيع الخاتم؟

فأخذت نفسًا عميقًا، وردت بصوت خفيض أيضًا:

- خفت أن ترفضي، كما رفضتِ من قبل.

- لقد رفضت من قبل لأن إعادة خدمتي المياه والكهرباء لم تكن ضرورة، أما شراء الدواء فهو حتمًا ضرورة، ولو كنت سألتني قبلها، ما كنت ترددتُ لحظة في الموافقة على بيعه.

نظرت ريم لأمها، بتقدير مشوب بالحزن والحياء، ولم تعقب، فقالت أمها بمرح:

- وتقولين إني أنا التي لا تعرفك.

نكست ريم رأسها، وقالت بندم حقيقي:

- أنا آسفة يا أمي، لا أعرف ماذا دهاني؟

فقبلت أمها رأسها وقالت:

- اشربي الشاي يا حبيبتي، صرف الله عنك الشيطان، ووساوسه وأوهامه.

أسندت ريم رأسها إلى كتف أمها، ثم سألتها بيأس:

ـ لماذا أنا هنا يا أمي؟

ـ ماذا تقصدين ب "هنا" القصر أم الفيوم؟

ـ أقصد "هنا" هذه النقطة، من فقدان البوصلة والضياع، صدقيني يا أمي عندما انهدم بيتنا وانتشر غباره حولنا، إلا أن الصورة كانت واضحة أكثر منها الآن.

فقالت أمها بهدوء:

ـ الصورة دائمًا واضحة، لمن يريد جديًا أن يرى.

صمتت ريم بحزن، فأبعدتها أمها قليلًا حتى نظرت لعينيها بثبات، وقالت لها بجدية:

ـ اسمعيني يا ريم، اعلمي جيدًا أن مهمتنا هنا قد انتهت، كان لنا دور مع عدنان، وقد تم على أكمل وجه ولله الحمد، وأية دقيقة نقضيها هنا ستكون على حساب كرامتنا، إذ لم يعد لنا دورٌ حقيقيٌ لنقوم به، فبالنسبة لإدارة القصر، انتهى دوري فيها لأن فتحية تقوم بها أفضل مني، وأنتِ انتهى دورك بمجرد أن أوصلتِ عدنان إلى خالته، وعما قريب سيعود إلى عمله وحياته، إذن صدقيني لا حاجة لوجودنا حوله، غير أن وجودنا سيشكل زحامًا يربك المشهد، فإذا أنصفك على سهام سيشعر بخطر فقدانها، وإذا أنصفها عليك سيشعر بأنه جاحد ولم يراعِ الجميل، ارحميه يا ابنتي، تولي إلى الظل كما فعل سيدنا موسى عليه السلام بعد أن ساعد الفتاتين كما قلت لك من قبل.

صمتت ريم بتأييد لكل كلمة قالتها أمها، وترددت أمها قليلًا قبل أن تقول بثبات:

ـ لذا، فقد تواصلت مع عمك بالأمس، بعدما عاد من العمرة، فطلبت منه أن يبحث لنا عن شقة بجواره في أسرع وقت، تكون ذات إيجار معقول، وبدون تأمين، حتى نعود إلى حياتنا ونترك هذه الصفحة ونمضي.

انتفض قلب ريم من تصرف أمها، لكنها وافقت عليه بقلبٍ منفطر، لقد اتخذَت أمها القرار الذي لم تقوَ على أخذه.

بعد قليل، استأذنت ريم أمها وذهبت إلى معتزة مبكرًا بعد أن اتصلت بها، فجلست معها في محل الجرائد، وصممت معتزة أن تبقى ريم لتتناول الفطور معها، فوافقت وأخذت تستمع بحب إلى خطط معتزة لاستقبال أهل سامي، وطلبت من ريم ان تكون معها في ذلك اليوم، فلم تعِدها بذلك فهي نفسها لا تعرف هل ستكون في الفيوم في ذلك اليوم أم ستكون في بقعة أخرى بعيدة عنها وعن أيامها.

عند عودتها إلى القصر فوجئت بوجود أحمد وعدنان أمام البيت الملحق، إذ كانا يجلسان على المقعد الرخامي، وكان عدنان مستندًا بظهره إلى البيت الملحق، مغمض العينين، وبمجرد أن أحس بقدومها، فتح عينيه، واعتدل في جلسته، فتقدمت منهما، وبعد التحية، سألها عدنان بقلق:

ـ أين كنتِ؟

ـ كنت عند معتزة.

- في هذا الوقت المبكر؟

- كانت تطلعني على استعداداتها لاستقبال سامي وأسرته.

فتنهد، ولاحت على وجهه ابتسامة هادئة، ثُمَّ رفع رأسه ناظرًا نحوها قائلًا:

ـ هكذا إذن؟ لن تنسي ذلك الموقف، وستبقين غاضبة مني بسببه؟

فردت باقتضاب:

ـ لا، ولمَ أغضب منك، كانت نيتك حسنة، ما أردتَ إلا أن تقرب السعادة مني.

فتنهد بعمق، وقال بلوم:

ـ أردت التحدث معكِ بالأمس، لكنك لم تعطني فرصة، تركتني وسط حديثنا، وصفقتِ الباب في وجهي، وبعد العشاء اختفيتِ بلا مقدمات، واليوم ، لم تأتِ لتناول الفطور معنا.

فنظرت بعيدًا، وسألته بهدوء:

ـ تتحدث معي بأي خصوص؟

فرد على الفور:

ـ بخصوص الملابس.

وصمت برهة، ثُمَّ أضاف:

ـ الملابس لا تخص سهام.

فنظرت له باهتمام وفضول، فتابع بشجن:

ـ لقد أرسلتُها من لندن لأخي قبل أسبوع من الحادث، ليهديها لخطيبته، لم أكن أعلم شيئًا عن الفوضى التي كانت تحيط به في تلك الأيام.

صمتت ريم من المفاجأة، وخجلت من نفسها لأنها اضطرته لتذكر هذا الجرح مجددًا، فشرد لثوانٍ، ثُمَّ عبس وجهه من الألم، وقال:

ـ كانا يستعدان للزواج، لكنها تركته عندما علمت بأمر إدمانه للمخدرات، تركته بدلًا من مساندته، والوقوف بجانبه.

حزنت ريم من أجل أخيه، لقد قاسى أيامًا صعبة قبل وفاته، وتعجبت لأمر عدنان، فكل تفصيلة يذكرها تكون محملة بالألم ومتشحة بالمرارة، وبعد صمت قصير، تنهد قائلًا:

ـ الحمد لله على كل حال، وقد آلت الملابس كلها إليك، وصدقيني هذا شيء يسعدني.

همت ريم بالاعتراض، فرفع حاجبيه، وقال:

ـ هل أكتب لك تنازلًا كتابيًا عنها؟

ثم قال وهو يقف:

ـ لقد طلبت من فتحية أن تنقل حقيبتي الملابس إلى غرفتك، وقال بابتسامة حزينة:

ـ ارتديها أينما شئت، وأنت تتناولين الفطور، وحتى وأنت تشذبين الأشجار إن أردتِ، ولا تكترثي لرأي أحد.

شعرت ريم وكأن سحابة حانية غلفت قلبها المُتقِد بنيران الغيرة، فهدأت، وشعرت بقلبها يبتسم، ولاح الرضا في عينيها، فقال بارتياح:

ـ اتفقنا على ما يبدو.

ثُمَّ أضاف بمرح:

- ألا يمكن أن أطمع في فنجان قهوة بهذه المناسبة؟

فقالت بحماس:

ـ بلى، بكل سرور، وسأعد لي ولأحمد فنجانين معك.

فابتسم برقة، ومشي بجوارها مستندًا إلى أحمد، بخطواته الحذرة، إلى أن جلس بتعب على سلالم القصر، وقال:

ـ سننتظرك هنا.

عندما عادت إليهما، ابتسم بهدوء وهو يتناول منها الفنجان، وناولت أحمد قهوته وقد أضافت لها اللبن، وجلست بجوارهما، وقد انتابها حزن عميق، وهي ترتشف القهوة بصمت، وكأنها تسمع كل ما حولها يعزف سيمفونية الوداع مبكرًا، فنظرت نحو صنبور المياه، وتذكرت أيامها الأولى مع عدنان، والتفتت صوب الجهة الجنوبية وتذكرت حين رأته واقعًا على الأرض، فتنهدت واعترفت بحزن أنها حتما ستشتاق إليه، وإلى كل تفصيلة معه، قطع عدنان الصمت قائلًا:

ـ لقد قمت بمجهود رائع في الحديقة يا ريم.

ـ لم أكن وحدي، أحمد كان يساعدني، وكذلك معتزة وأخويها.

فابتسم قائلًا:

ـ بفضلك أصبح القصر المهجور ينبض بالحياة.

وصمت قليلًا، ثُمَّ قال بحزن:

ـ اليوم أرسل لي حسين الجرائد، وأخبرني أنه سيرسلها كل يوم، كما كان يفعل من قبل.

فقالت ريم بحماس:

ـ جميل، لكن لمَ يبدو صوتك حزينًا وأنت تقول هذا؟

فتنهد بحزن، ثُمَّ قال:

ـ أنا لا أذكر متى كانت آخر مرة طالعت فيها جريدة.

فتألمت من أجله، وتجمعت الدموع في عينيها، لكنها قالت:

ـ لم يفُتكَ الكثير، الأخبار تكاد تكون متكررة.

فابتسم قائلًا:

ـ هذا آخر رد توقعت سماعه.

فسعدت لتغير مزاجه، فأضاف بمرح:

ـ كنت أعتقد إني بصدد رؤية وجه يبكي.

فقالت ممازحة:

ـ لك هذا إن أردت.

فرد ممازحًا:

ـ لا، أرجوك.

وتردد قليلًا قبل أن يضيف بجدية:

ـ تعاطف الناس شيء طيب، أما تحول التعاطف إلى شفقة، فهو شعور قاسٍ وثقيل على النفس.

خرجت سهام تتبعها فريال هانم، وقالت:

ـ دندو، أنت هنا؟ استعد.

وقالت فريال هانم لريم بسعادة:

- مرحبًا يا ريم.

- مرحبًا يا حبيبتي.

وقالت سهام لعدنان:

ـ عندك مقابلة تليفزيونية بعد قليل.

ـ كيف؟ وأين؟

ـ هنا، فريق الإعداد والديكور في الطريق، أمامهم أقل من نصف ساعة.

فالتفت لخالته منتظرًا التفاصيل، فقالت له سهام:

ـ هيا انهض، لا وقت لتضيعه.

فنظر لهما بذهول:

ـ لكن أريد أن أفهم.

فقالت سهام بسعادة:

ـ أنا أعمل بناءً على تعليمات وإشراف ماما على حملة إعلانية متكاملة أولها هذا اللقاء التليفزيوني وآخر صحفي، بالإضافة إلى إعلانين، أحدهما عن مجموعتنا، والآخر عن القرية السياحية الجديدة، سنصور جزءًا من اللقاءات التليفزيونية هنا، والجزء الآخر في مقر الشركة في القاهرة.

وقالت فريال هانم:

ـ أما إعلان القرية السياحية والمأدبة التي سيعدها الحاج رشوان، فإن فريق التصوير سيعاين الأرض اليوم، وسيجهز لذلك الإعلان خلال أيام، وستتواصل سهام مع الحاج رشوان لتنسق بينه وبين المخرج.

وسألته سهام باهتمام:

- هل معك رقم هاتفه المحمول؟

فردت فريال هانم على الفور:

ـ نعم، لقد أعطاه له الحاج رشوان.

فقالت سهام، برضا:

ـ حسن جدًا، والآن أعطني رقمه، واذهب لتستعد يا دندو، وأنت يا أمي، تعالي معي، سأُشرف على استعداداتك بنفسي.

دخلت فريال هانم مع سهام، وبدا على عدنان التردد، فسألته ريم:

ـ ما الأمر؟

فرشف رشفة أخيرة من القهوة، وتنهد قائلًا:

ـ لا أزال أشعر بعدم ثقة في القيام بما كنت أقوم به قبل الحادث.

ـ تشعر بعدم ثقة أم بعدم رغبة؟

ـ أشعر بانعدام كلتيهما، فالمستقبل يبدو أمامي أجوفًا تمامًا.

ـ هل تقصد بالمستقبل المال والأعمال؟

صمت برهة، ثُمَّ رفع كتفيه قائلًا:

ـ نعم، هذا ما رباني عليه أهلي.

ـ أما أهلي فربوني على أن المستقبل ليست مفرداته المال ونجاح الأعمال والسيارات والعقارات، إنما المستقبل الكبير هناك، حين نلقى الله، حين

يقول الإنسان يا ليتني قدمت لحياتي، ومقوماته الإيمان بالله واتباع ومحبة رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وأعمدته متوفرة لديك.

لمعت عيناه، وقال بصوت مختلج:

ـ عليه الصلاة والسلام، ما أعمدته؟

ـ تعلقك بربك وسعيك لمحبته وخوفك من الانقطاع عنه هذه أعمدته، أما عملاته، إنما هي سجدة خاشعة لله، لحظة مناجاة صادقة، دمعة تذرفها لله شوقًا أو محبة أو خشية، وأعتقد إن هذه العملات موجودة لديك أيضًا، ولقد شهدت على بعضها في صغري، عند تلك الشجرة العتيقة.

صمت عدنان وقد عم وجهه الرضا، فتابعت:

- ليس معنى هذا أن تترك أسباب المعيشة والرزق بل كن مثل صائد السمك، اشحذ سنارتك وألقها، توكل على الله بقلبك، واعمل بجوارحك، فيرتاح قلبك ولن تجني إلا ما قدره الله لك.

تنهد عدنان بارتياح، وقال:

- يا الله! ما أشبه كلامك بكلام أمك، يسري في القلب فيمسح الضيق عنه بأصابع من نور، ويلطف الروح بنسيم من الراحة والطمأنينة الخالصة.

توردت وجنتا ريم خجلًا، ولأول مرة تتدخل سهام في الوقت المناسب، إذ أطلت برأسها من الشرفة العلوية وقالت:

ـ دندو! هل هذا معقول؟ لم تقم من مكانك بعد.

ـ حسنًا... حسنًا.

كانت ريم بالمطبخ ، عندما دخل إليها عدنان، ووقف أمامها مرتديًا بدلة سوداء راقية التصميم وقميصًا أبيض، ورابطة عنق بيضاء، وسألها بترقب:

ـ كيف أبدو؟

ودخلت سهام خلفه، فصمتت ريم، فكرر سؤاله:

ـ كيف أبدو يا ريم؟

فقالت بصدق:

ـ اسأل سهام، فهي تفهم في أمور الموضة أكثر مني.

فقال لها بلوم:

ـ يهمني رأيك.

فقالت بخجل:

ـ تستحق العلامة الكاملة.

فأضاءت وجهه الابتسامة حين ردت بذلك التعبير، وقال ممازحًا:

- تمنيت سماع هذا الرد.

فأخفضت رأسها بخجل وقد أسعدها رده، فخرج بهدوء حيث امتلأت الحديقة بحركة طاقم العمل، وبعد قليل تسللت ريم مع أحمد من القصر دون أن يلحظهما أحد، وذهبا إلى بيت الجد، ووقفا في نافذة غرفتها، فشاهدا المخرج وقد بدأ يلتقط الصور لعدنان من زوايا مختلفة، بمفرده، ومع خالته وسهام، فرحت ريم لأن عدنان قد عاد مشرقًا تمامًا كما كان، قام فريق الديكور بعمل ديكورات لامعة متلألئة، لكنها لا تشبه تلألُأ

ابتسامته تحت أشعة الشمس، وعندما لاحظ عدنان وقوفهما بالنافذة اتسعت ابتسامته وأومأ لهما محييًا بخفة لم يلحظها لا المخرج ولا المصور، فشعرت بكل خلاياها ترد التحية حين أومأت له بدورها، لكن هذا الحوار الخفي بينهم لم يكن خفيًا تمامًا إذ لاحظته خالته فشاركتهم الابتسامة بلطف.

الفصل العاشر

(لحن الرحيل)

في اليوم المحدد لتصوير مشاهد إعلان القرية السياحية، ساعدت ريم فريال هانم في اختيار جلبابٍ أخضر داكن، يتماشى مع لون عينيها، وغطاء رأس ملائم له، فاستعجلتها سهام، وأخبرتها أن الجميع ينتظرها بالحديقة حتى ينطلقوا إلى مكان التصوير، وعندما خرجت إليهم مع ريم فوجئت بحضور الحاج رشوان ليأخذهم بنفسه إلى مكان الأرض، فجمد لثوانٍ عندما خرجت فريال هانم في ثوبها الفلاحي، ثُمَّ قطع المسافة إليها، وصعد السلالم الست بسرعة، وقال بصوت حزين:

ـ كأن الزمن لم يمر من هنا يا ابنة عمتي.

فسالت دموعها، ودخلت إلى القصر مسرعة، فنظر الحاج رشوان أرضًا وقد بدا عليه الارتباك، فأشارت ريم إلى الجميع وقالت:

ـ أرجو الانتظار لثوانٍ.

ولحقت بها إلى غرفة المكتب، فوجدتها تبكي فوق الأريكة، فرفعت رأسها وقالت باندفاع:

ـ أنا لست مستعدة لأية كلمة يقولها، أو يصمت عن قولها.

ربتت ريم على كتفها، فمسحت دموعها بأطراف أصابعها المرتعشة، وقالت بألم:

ـ لقد وأدت مشاعر الأمس في زاوية داخل سويداء قلبي، لكنها لم تمت كما ظننت، لقد انتفضت بشراسة لتنتقم مني.

أمسكت ريم بيدها، فتابعت بحزن:

ـ لا عمرنا ولا مركزنا أمام أولادنا يسمح لنا بهذا العبث، وهو لا يساعدني، بل يتصرف كمراهق، وأنا... أنا لم أتخيل أن أكون هشة إلى هذه الدرجة.

ـ لا تحملي الموقف أكثر مما يحتمل، تعاملي مع الأيام بما تحمله لك، لا تقولي عمري ومركزي، كوني أكثر مرونة.

فاجأها قول ريم، فنظرت لها بتركيز وسألتها:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أنت أرملة وهو أرمل، إن أراد وصل ما انقطع على سنة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، لا تغلقي الباب مرة أخرى في وجهه.

فرفعت حاجبيها رافضةً لرأيها، وقد احمر وجهها خجلًا وهي تقول:

ـ أي باب؟ ماذا تقولين يا ريم؟

ـ مما رأيت وأرى، هذا الرجل لن يصمت طويلًا، وسيسعى لتحقيق ذلك الحلم القديم، فتهيأي لذاك الموقف الذي أضحى قريبًا، ولا تفرضي على نفسك أحكامًا مسبقة، إذا أهداك الله فرصة جديدة لا تكوني أول الرافضين لها، لا تتقمصي دور والدك.

ـ يا ريم أنا جدة وهو جد.

ـ هل في الشرع ما يمنع زواج الجدة والجد؟ هذا هو السؤال.

صمتت فريال هانم، فتابعت ريم بتعاطف:

ـ لِمَ أنتِ خائفة؟ أنتِ لست وحدك هذه المرة، أعتقد إن عدنان لن يمانع، وسهام كما أصبحت أعرفها، مهما أبدت من معارضة إلا أنها تنحاز لرأيك في النهاية لذا، لا تتعاملي مع اليوم بمعطيات الأمس، فكري جيدًا، أنت وحدك القادرة على إجابة نفسك على هذه الأسئلة: هل حقًا أنتِ ابنة هذه الأرض، ابنة هذا الطين؟ هل عشتِ بالفعل كفلاحة في زي سيدة أعمال أم أنك تخدعين نفسك وأن من تقف أمامي الآن هي سيدة أعمال في زي فلاحة؟

صمتت فريال هانم، وقد بدت الحيرة على وجهها، فأعطتها ريم منديلًا ورقيًا، لتمسح دموعها، وقالت برقة:

ـ والآن تفضلي، اخرجي إليهم، فالكل بانتظارك.

في اليوم التالي على الفطور نظرت فريال هانم إلى الفطير الطازج، فلاحظت فتحية ذلك وقالت:

ـ أرسله الحاج رشوان كالعادة.

فابتسمت فريال هانم، وعندما لاحظ عدنان ابتسامتها، ابتسم بدوره، نزلت سهام مسرعة، وقالت:

ـ هيا يا دندو، تناول شيئًا خفيفًا واصعد لتستعد، وأنتِ كذلك يا ماما.

عندما لاحظت فريال هانم دهشة ريم، قالت موضحة:

ـ سنذهب إلى مقر الشركة في القاهرة، لتصوير بعض الأجزاء الخاصة باللقاء الصحفي والتليفزيوني.

وقفوا في الحديقة بانتظار خروج عدنان، فخرج أنيقًا راقيًا يحيط به الوقار، وما إن انضم إليهم، حتى رأوا سيارة فارهة تدخل من باب القصر، وعندما توقفت أمامهم ونزل منها شاب يرتدي بدلة رسمية، لاحت الابتسامة على وجه عدنان، وقال بسعادة:

ـ خالد!

فتقدم خالد منه، واحتضنه بقوة، وقال بابتسامة:

ـ كيف حالك يا سيدي؟

ـ الحمد لله، بخير.

ـ لم أصدق نفسي عندما تواصلت معي سكرتيرة فريال هانم وطلبت من أن أعاود العمل معك.

ـ معي أنا؟

فقالت فريال هانم بحب:

ـ نعم يا حبيبي، أعرف أنك ترتاح لقيادة خالد، فهذه السيارة هديتي لك بمناسبة عودتك إلى شركتك.

ففهمت ريم سبب تأثر خالته عندما طلب منها عدنان استعارة سيارتها من قبل.

نظر عدنان لخالته بامتنان، فربتت على جانبي وجهه بحب، ثُمَّ ضمته إليها.

عندما ابتعدت السيارة، دق قلب ريم بحنين ودعت الله في سرها أن ييسر لعدنان طريقه وأن يسخر له القلوب والأسباب.

بدا القصر فارغًا بعد ذهابه، ومرت الساعات ببطء، وعندما أخبرتها فتحية أنهم في طريق عودتهم إلى القصر، خرجوا لاستقبالهم في الحديقة، وقد أسدل الليل أستاره، وانتفض قلبها بفرحة عندما لمحت السيارة تتهادى على البعد، وعندما ترجل عدنان منها، كان سعيدًا مبتهجًا، فسألته ريم بقلق:

ـ كيف جرت الأمور؟

ـ لقد استقبلني العاملون أمام مقر الشركة.

وأضافت فريال هانم بسعادة:

ـ لقد تدفقوا خارجين من مكاتبهم، في مشهد يهز القلوب، كانت فرحتهم بعودته عظيمة.

ولمعت الدموع في عينيه، وهو يقول:

ـ لم أتوقع ذلك الاستقبال، لقد طوقوني بمشاعر دافئة، فاجأتني.

سعدت ريم من أجله، وراقبته وهو يصعد السلالم مع خالته وسهام بنشاط، وكأنما تخلص من عبء ثقيل كان جاثمًا على صدره.

بعد أيام من إذاعة الإعلانات، جاء المحامي إلى القصر، وأخبرهم أن سعر سهم الشركة تضاعف خلال جلسات التداول في البورصة، كما رصدت سهام ردود الأفعال الإيجابية على اللقاءات التليفزيونية والصحفية التي أجريت مع عدنان.

غادرت سهام إلى القاهرة لمتابعة سير الأعمال، وبينما بقيت فريال هانم مع عدنان أثناء جلسة العلاج الطبيعي، خرجت ريم إلى الحديقة مع أمها وأخيها لمتابعة أعمال صيانة وطلاء سور الحديقة والبوابة الحديدية للقصر، فتنهدت أم ريم وقالت:

ـ كل شيء عاد إلى مكانه يا أبنائي.

وقبل أن تنهي جملتها رن هاتفها المحمول، وكان المتصل عم ريم وأحمد، فانقبض قلب ريم، وفهمت فحوى المكالمة من ردود أمها المقتضبة، وعندما أنهت أمها المكالمة، قالت بتردد:

ـ نحن أيضًا آن الأوان لنعود إلى مكاننا، كما سمعتما، لقد وجد لنا عمكما شقة بجواره، ويريد منك يا ريم أن تقابليه غدًا بعد الظهر، لتتفقديها.

صمتت ريم، ونظرت أرضًا، فأضافت أمها:

ـ أيا كانت حالتها وافقي عليها.

لمعت الدموع في عيني ريم، وقالت بصوت مبحوح:

ـ مفهوم.

ـ واشتري لنا أثاثًا بسيطًا، وأنا وأحمد سنلحق بك فيها، حتى لا نضطر للبقاء في شقة عمك، تعرفين أن زوجته غيور.

فبدا الحزن على وجه أحمد، وقال باعتراض:

- لمَ العجلة يا أمي؟ ما يزال هناك وقت حتى بداية العام الدراسي.

- لا يا حبيبي، علينا أن نستقر قبل بداية عامك الدراسي، الصف الثالث الإعدادي يحتاج إلى تركيز من أول يوم.

صمت أحمد باستسلام، ولم يرد، فقالت أمهما:

ـ إذن هيا، تعالا لنكتب قائمة بما ستقوم ريم بشرائه.

على الغداء قال عدنان لخالته بجدية:

ـ لقد تلقيت مكالمة هاتفية من مـراد اليوم.

فقالت خالته بدهشة ممزوجة بالسعادة:

ـ مراد! حقًا!

فقال عدنان بابتسامة:

ـ سيأتي لزيارتنا هنا خلال أيام.

- كيف؟ هل هو بالقاهرة؟

- لا، لا يزال بإيطاليا، بعدما شاهد اللقاءات التي أُجريت معنا مؤخرًا، أخذ رقمي الجديد من عز الرجال واتصل بي وهنأني، تعرفين أن علاقتي به كانت جيدة.

فسألته خالته بترقب:

ـ هل سيأتي وحده؟ أم سيحضر آدم معه؟

فقال بتأكيد:

ـ طبعًا سيحضره، فقد طلبت منه ذلك، فوافق، وبشكل عام أجواء المكالمة كانت إيجابية للغاية.

فقالت خالته بأمل:

ـ يا الله! لقد اشتقت لآدم ولأبيه أيضًا، فقد كان زوجًا صالحًا بحق.

وقالت فريال هانم لأم ريم موضحة:

- آدم هذا حفيدي، ومراد زوج سهام، نشبت بينهما خلافات بعد الحادث، انفصلا على إثرها.

فقالت أمها بتعاطف:

- ليجمع الله شملهم.

- اللّٰهُمَّ آمين.

أما ريم فلم تعلق، فقد فقدت الاهتمام تجاه أي شيء، فلاحظ عدنان وجومها، وعدم مشاركتها في الحديث، فسألها بقلق:

ـ هل أنتِ بخير يا ريم؟

فترددت لثوانٍ، فقال أحمد بدون مقدمات:

ـ ريم راحلة غدًا.

فصمتوا جميعًا، إلى أن قطع عدنان الصمت، وسألها بتوتر:

ـ راحلة؟ إلى أين؟

فردت بصوت حاولت أن يبدو طبيعيًا:

ـ إلى القاهرة.

فسألها مستفهمًا:

- من أجل مقابلة عمل أخرى؟

ورغم انتظاره لسماع التفاصيل، إلا أن ريم خافت إن تكلمت أن يلاحظ ارتجاف صوتها، لذا آثرت الصمت، فتابعت أمها بدلًا عنها:

- لا، لقد وجد عمهما شقة مناسبة لنا بجواره، ويريد من ريم أن تذهب إليه غدًا ليريها لها، إن شاء الله.

أبعدت ريم نظرها عن عدنان، حيث بدت على وجهه الصدمة، ونظرت إلى خالته التي قالت لها بترقب:

ـ سأرسل معك السائق حتى تعودي معه.

فقالت بتوتر:

ـ شكرًا لك، لكني لن أعود، إذ سأبقى عند عمي، حتى أؤثث الشقة، وبعد يوم أو اثنين ستلحق بي أمي، وأخي.

اكفهر وجه عدنان ولم يعلق، وبعد لحظات صامتة، ترك طاولة الطعام بهدوء، ودخل غرفة المكتب، وخالته تتابعه بنظرها بقلق، ثم تركتهم ولحقت به وقد بدا عليها الاضطراب، فقالت فتحية بأسى:

- لماذا ترحلون يا فوزية؟ من لكم في القاهرة لتذهبوا إليها؟

- حياتنا هناك، كما إنني لا أستطيع إبعاد ريم وأحمد عن عمهما، نحن نعيش هناك تحت إشرافه.

فقالت بصوت اختلج من البكاء:

- يا الله! لقد اعتدنا عليكم، لقد أصبحتم جزءًا من حياتنا في وقت قصير.

- لله الأمر من قبل ومن بعد، إن شاء الله لن ينقطع التواصل بيننا، وقد نأتي لزيارتكم في إجازات ريم وأحمد.

حملت ريم صينية القهوة، ودخلت المكتب بحذر، فوجدت عدنان واقفًا ينظر من النافذة إلى الحديقة، معطيًا ظهره تجاه الباب، وهالة دخان السجائر

تحيط به، وكانت خالته تجلس على الأريكة ناظرة أرضًا بشرود، ولم تشعر بوجود ريم إلا عندما قربت منها صينية القهوة، وقالت:

ـ تفضلي.

فنظرت لها بلوم، لم تعهده منها من قبل، وقالت بحزن:

ـ لا أريد قهوة.

فنظرت لها بحزن، ثم توجهت نحو عدنان، فنفث دخان سيجارته بعيدًا عنها، فقالت لتضفي بعض المرح على الأجواء المتوترة حولهم:

ـ لقد أعدمنا كل السجائر أنا وأمي، فمن أين أتيت بهذه؟

فنظر أرضًا، ثُمَّ قال بحزن:

ـ كانت هنا بدرج المكتب.

- رجاءً، لا تعُد لتدخين السجائر مرة أخرى.

صمت وعضلات وجهه متصلبة، فحوَّلت نظرها إلى صينية القهوة، وقربتها منه، وقالت بصوت مهتز:

ـ تفضل القهوة.

وعندما مد يده وأمسك يد الفنجان، أخذت السيجارة من بين إصبعيه، فلم يمانع، وسألها بحزن، وهي تطفئ السيجارة:

ـ قهوة الوداع؟

فقالت وهي تغالب دموعها:

ـ بالطبع لا، سنأتي لزيارتكم، هل ستستقر في الفيوم أم مع فريال هانم في القاهرة؟

فصمت قليلًا، ثُمَّ قال بتشتت:

ـ لا أعرف.

فحاولت التماسك لكيلا تبكي أمامه، فنظر للفنجان بصمت لثوانٍ، ثُمَّ وضعه من يده على الطاولة المنخفضة، وتوجه نحو المكتب، ثُمَّ عاد إليها حاملًا كتابًا بين يديه وقال:

ـ أحضرته من القاهرة من أجلك.

فأخذته منه وقد لمعت عيناها بالدموع وهي تتأمله، وسألته بشجن:

ـ كيف عرفت أني أحب جلال الدين الرومي؟

فأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يقول بحزن:

ـ أخبرني أحمد بأنك ما حزنتِ على فقدان شيء تحت أنقاض بيتكم، كحزنك على فقدان هذا الكتاب.

وصمت برهة، ثُمَّ اختلج صوته وهو يقول:

ـ لقد كتبت لك بداخله اقتباسًا من رواية لنجيب محفوظ.

ففتحت ريم الكتاب، وقرأت ما كتب لها فيه بصوت مسموع:

"وعشت أيامًا أذكرها دائمًا كما يذكر السّقيم عهـد الصحة والعافية؛ وكنت أعلم أنها أيـام وإن طـالت قصـار، وإن صفت فإلى انتهاء سريع"

فسالت دموعها رغم حذرها، وقالت لتنهي الموقف:

ـ أشكرك على هذه الهدية القيمة، وعلى كل شيء.

وهربت مسرعة من أمامهما، وعندما وصلت إلى البيت الملحق، بكت بكاءً مريرًا، وهي تتأمل كلماته، فكرت بحزن: أن هذه المقولة تنطبق تمامًا على أيامها في القصر الحبيب

"أيام وإن طالت قصار، وإن صفت فإلى انتهاء سريع"

سمعت ريم صوت طرقات على الباب، فتعجبت لأن أمها معها المفتاح، فمسحت دموعها، وفتحت الباب، فإذا بها فريال هانم، التي هاجمتها على الفور قائلة:

ـ ماذا تنوين أن تفعلي بعدنان يا ريم؟ ألا ترين حاله كيف أصبح؟

صمتت ريم من الهجوم المباغت الذي لم تكن مستعدة له، فتابعت خالته:

ـ ألا ترين كيف أضحى مشوشًا؟ عدنان لم يتعافَ بعد يا ريم.

فوضعت ريم وجهها بين يديها وبكت بعجز، فاقتربت منها فريال هانم، وقالت برجاء:

ـ لا تتركيه، عدنان يحتاجك.

فرفعت رأسها بقوة لتنفض عن قلبها هذه الفكرة، وقالت بتصميم:

ـ لا، لم يعد يحتاجني، لديه كل ما يحتاجه الآن، لديه أنت، وسهام وأصدقاؤه وحب العاملين وحب أهل القرية.

وصمتت قليلًا ثم أوضحت بمرارة:

- لكل واحدٍ منّا مدارٌ يدور فيه، أنا هنا أدور خارج مداري.

صمتت فريال هانم، وقد ملأتها كلمات ريم صدمة، وتركتها وتوجهت صوب الباب، ثم نظرت لها قائلة بخيبة أمل:

ـ لا أصدق أنك الفتاة نفسها التي رأيتها أول مرة في بيتي، الفتاة التي غامرت، وقطعت المسافات، وطرقت باب أناس لا تعرفهم من أجله.

وقفت ريم بجوار الباب تتابع فريال هانم ببصرها عبر الحديقة، للمرة الأخيرة وهي تراها تبتعد بخطى مرتبكة، إلى أن اختفت عن ناظريها داخل القصر، وسالت دموعها وهمست: ليتك لا تقسين عليّ، فحالي لا يختلف كثيرًا عن حالك حين غادرتِ القصر منذ ثلاثين عامًا، حين حملت بين ضلوعك قلبًا يئن، وجراحًا لا تلتئم.

وتنهدت ريم بألم، يبدو أنها عقوبة يفرضها القصر على كل من أحبه، إذا فكر في مغادرته.

الفصل الحادي عشر

(دواء المحب حبيبه)

لم تتمكن ريم من النوم، فقامت من فراشها دون أن تضيء الغرفة، حتى لا توقظ أحدًا، وأزاحت جزءًا من ستارة النافذة، فتسلل لها شعاع خفيف من نور القمر، الذي كان يرخي على الحديقة رداءً فضيًا، ولمحت حركة على البعد تحت الشجرة العتيقة، وإذا به عدنان، فزادت سرعة دقات قلبها لرؤيته غير المتوقعة، كان قائمًا يصلي، وحالت النافذة الزجاجية المغلقة دون سماع صوته، ففتحت جزءًا صغيرًا من النافذة لتسمع تلاوته لآخر مرة، فتهادت إليها نسمات الليل الساحرة محملة بصوته الهادئ وهو يتلو تلاوته الرائقة، فاختلطت داخلها مشاعر الخشوع والمحبة، والوداع، وسالت دموعها المتفهمة فرفعت كفيها، وأخذت تدعو له بهمس:

- اللّٰهُمَّ كما جعلتني سببًا في نجاته، فلا تجعل فراقي له سببًا في انتكاسته، واحفظه بعينك التي لا تنام.

- آمين.

فوجئت ريم بأحمد، واقفًا خلفها يؤمن على دعائها، فشعرت بالإحراج منه، فاقترب منها، ونظر نحو عدنان على البعد، ثُمَّ قال بعد تردد:

- الورقة التي كتبتها لعدنان لطلب المياه، والوردة التي أهديتها له، ما يزال يحتفظ بهما في كتابٍ بغرفته، تحت وسادته.

دق قلب ريم بسعادة، وقد فاجأتها ملاحظة أخيها، وقاطعهما صوت أمهما إذ قالت بلوم:

- أحمد! من غير اللائق أن تقول شيئًا كهذا لأختك، ولا أن تفشي أسرار عدنان، لأنه أعطاك الأمان وأدخلك غرفته.

طأطأ أحمد رأسه، وقال بإحراج:

- أنا آسف.

مع أول ضوء للنهار حملت ريم حقيبتها على كتفها، وتوجهت صوب الباب، فشعرت بثقل في قدميها وكأنها تقتلعهما من جذورهما مع كل خطوة تخطوها، فشعر أحمد بذلك، فحمل عنها حقيبتها، وانتظرها بجوار الباب، وقبل أن تفتحه، ربتت أمها على جانبي وجهها، وقالت بحزن:

ـ لا تحسبيني متحجرة المشاعر يا ريم، أنا أشعر بوجعك يا حبيبتي.

فابتسمت ريم لتصرف نظرها عن انكسارها، وقالت بصوت متحشرج:

ـ أعلم يا أمي، لكن بقائي معه في مكان واحد وأنا أُكِن له كل هذه المشاعر، قد يعرضني لغضب ربي، لأني وإن نجحت في غض بصر عيني عنه، إلا أنني قد فشلت في غض بصر قلبي.

وتنهدت بحزن وقالت:

ـ ما لنا إلا الله يا أمي، وإرضاء ربي، أولى من إرضاء قلبي.

ـ اعلمي يا ابنتي أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا مما ترك.

فتنهدت ، وهي تقول:

ـ ونعم بالله.

ونظرت نحو أحمد، وقالت:

- اعتن بأمنا وبنفسك يا أحمد إلى أن نلتقي.

وعندما فتحت الباب، فوجئت بعدنان أمامها، فسيطر عليها الذهول لثوانٍ، ثم قالت بعدم تصديق:

ـ عدنان!

فتنهد قبل أن يقول بألم:

ـ خفت أن تذهبي دون وداعي.

فحوَّلت نظرها عنه، ونظرت أرضًا، فسالت دموعها وقالت:

ـ لا أحب لحظات الوداع.

فقال بعذاب واضح:

ـ ومن يحبها؟!

فرفعت رأسها، واستجمعت كل قواها، لتقول بصوت متردد:

ـ أراك بخير.

فقاطعها قائلًا بقوة:

ـ ريم انتظري.

فنظرت له بصمت، وقد تزايدت ضربات قلبها حين أمسك الحقيبة من يدها، وأفلتها فسقطت أرضًا، وبعد تردد أضاف بعذاب:

ـ لطالما حاربت شعوري تجاهك خوفًا عليكِ مني، وحتى لا أظل أستغل طيبتك، ورغبتك في مساعدتي.

ولمعت عيناه بالدموع، فانتفض قلبها لهفةً لما سيقول، فنظر بعيدًا، محاولًا التماسك، وأضاف:

ـ لطالما أردت أن أتنحى جانبًا بمشاعري الثكلى، حتى لا أفوّت عليك فرصة بداية حياة مشرقة مع إنسان طبيعي، يتشرف به أبناؤه، إنسان ماضيه شفاف لم يتلطخ برماد احتراقه، كما حدث لي.

فحزنت ريم بسبب رأيه في نفسه، وسألته بحزن:

ـ ألذلك السبب أردت أن تمهد الطريق أمام ارتباط سامي بي؟

فزفر بقوة، وقال بوجه متألم:

ـ نعم، رغم أنه كان أقسى قرار أتخذه، إلا أنني قد فعلت ذلك من أجلك، وتحملت ذلك الألم من أجل سعادتك.

وشرد لثوانٍ، وكأنه يسترجع تلك اللحظات، وتزايدت سرعة أنفاسه، وهو يقول:

ـ لكنني لم أعد قادرًا على الصمت وأنا أراكِ ترحلين، فقررت الاستجابة لنداء قلبي، لأنني لا أقوَ على تحمل لومه لبقية عمري.

وصمت برهة، وجبينه يتفصد منه العرق رغم برودة الجو، وقال بانهزام:

ـ لو كنتُ رجلًا آخر غيري، لأخبرتك أن هذا الطريق الذي ساعدتموني على الوقوف عليه لا قيمة له عندي، ولا لأية خطوة أخطوها عليه مهما كانت ناجحة، إن لم تكوني بجواري فيه.

سالت دموع ريم، فتابع بضعف وقد اكتست قسمات وجهه بالتعب:

ـ لو كنتُ رجلًا آخر غيري، لأخبرتك أن حياتي أراها كصورة قاتمة، مهتزة، تفوح منها رائحة اليأس إلا إذا كان ضوؤك ينيرها، فتتلون بلون الأمل، وتتنسم بروائح الفل والرياحين.

فمسحت دموعها بأطراف أصابعها، فتابع بأسى والدموع تملأ عينيه مثلها:

ـ لو كنتُ رجلًا آخر غيري، لكنت وقفت أمامك، ومنعتك من الرحيل، لأخبركِ أن أقصى أملي في الحياة أن تقبلي الزواج بي وأن تكوني رفيقة دربي وأم أولادي.

ثُمَّ أغمض عينيه، برهة فسالت دموعه، ثُمَّ فتحهما وهو يضيف بضعف:

ـ لكن كما ترين، لست إلا أنا! ولا أملك أن أكون إلا هذا الرجل الذي يصارع ماضٍ مسيطر عليه كطاغية يحاصر حاضره ويربك مستقبله،

فيجعله متأرجحًا بين أمل النجاح البعيد ويأس الاستسلام القريب، فلا يعرف إن كان سيكون لجواده انتفاضة من بعد كبوته أم لا؟

ومسح دموعه بصمت، كارهًا ضعفه، فنظرت ريم لأمها التي سالت دموعها مثلهما، وكأنها تستأذنها في البوح، ثُمَّ عاودت النظر إلى عدنان، وقالت بصدق:

ـ لو كنتَ رجلًا آخر غيرك، ما قبلت.

فنظر لها بترقب، فتابعت بخجل:

ـ أما لو كنت تعني كل ما قلته الآن، لقبلت بلا تردد أن أكون زوجتك ورفيقة دربك وأمًا لأولادك.

فنظر لها بعدم تصديق، فتابعت بابتسامة مشرقة:

ـ نعم لقبلت بك أنت، عدنان الحسيني الذي عرفته منذ خمسة عشر عامًا، عدنان الذي تلتف القطط حوله فيحنو عليها، عدنان الذي يصلي تحت الشجرة العتيقة، فيؤنس قلبي وروحي، فأنام هانئة على صوته وهو يتلو القرآن وأنفاس ذكره لله تعمُر قلبي بأنوار السكينة.

أضاءت الابتسامة وجهه الطيب، وقال بحزن يشوبه الأمل:

- لكنني لم أتعافَ بعد، أخشى أن أنتكس، فتندمين على اختيارك.

فملأت الفرحة عينيها وهي تقول بتصميم:

- كما قال شمس الدين التبريزي لتلميذه جلال الدين الرومي:

"يمكن لأي شخص أن يختارك في توهجك لكنني سأختارك حتى حين تنطفئ، تأكد بأني وإن رأيت النور في غيرك سأختار عتمتك"

فابتسم ودموع الفرح تتراقص في عينيه، وردد بطمأنينة:

- الحمد لله.

والتفت صوب أمها، وقال وهو يمسح دموعه بسعادة:

ـ خالتي فوزية! هلّا أسعدت قلبي كدأبك معي، وتكرمت بالموافقة على زواجي من ريم.

فتهلل وجهها، وقالت من بين دموعها:

ـ لا أتمنى لابنتي زوجًا أفضل منك، بفطرتك النقية وقلبك السليم، لكن الرأي الأخير لعمها ولأخيها.

فقال أحمد على الفور:

- أخوها موافق بلا شك.

فالتفتوا إليه، وكان يبكي متأثرًا مثلهم، فاندفع نحو عدنان، واحتضنه بقوة:

- مبارك يا أخي، مبارك يا ريم.

وتهادى إليهم صوت فريال هانم التي كانت متابعة حوارهم دون أن يشعروا بها:

ـ مبارك يا أحبائي.

فجرى عدنان نحوها كطفلٍ صغير، وارتمى في حضنها، فضمته بقوة ودموعها تملأ وجهها الجميل، ثُمَّ أرجعت رأسها للوراء، وربتت على جانبي وجهه بكفيها، وقالت بحب:

ـ أنا لا أتمنى لك زوجة أفضل من ريم.

والتفتت إلى ريم، وقالت:

ـ مبارك يا ريم انضمامك إلى أسرتنا، وسامحيني على شدتي معك بالأمس.

فقالت ريم والسعادة تتراقص في عينيها:

- كنت أعرف أن ظاهرها كان شدة، بينما باطنها كان حبًا وحرصًا على ألا أفارقكم.

ـ مبارك يا أبنائي.

فإذا به الحاج رشوان واقفًا قريبًا منهم، فشكره عدنان قائلًا:

- بارك الله فيك يا خالي.

وسألته فريال هانم بسعادة:

ـ ماذا تفعل هنا في هذا الوقت المبكر؟

فقال بجدية:

ـ استجبت لنداء قلبي كما فعل عدنان، فوجدت نفسي على بابك.

احمر وجه فريال هانم خجلًا، واقترب الحاج رشوان من عدنان، وقال:

ـ عدنان يا بُني، هناك قصة لا تختلف عن قصتك مع ريم، لكنها بدأت منذ ثلاثين عامًا.

فقاطعته فريال هانم قائلة بإحراج:

ـ رشوان!

فنظر لها الحاج رشوان بفرح وهو يسمع اسمه دون لقبٍ يسبقه، مما شجعه أكثر على الاستمرار، فتابع:

ـ قصة أنهاها جدك...

ففاجأهم عدنان بقوله:

ـ أعرف ما تود قوله يا خالي.

فسأله بدهشة:

ـ أوَ تعرف؟ من أخبرك؟

ـ حين التقينا بك عند البحيرة، حينها سمعت فصول قصتكما كاملة من ذاك الصمت المشحون بالأسى الذي أحاط بكما، وكان أبلغ من أي حديث.

فامتلأت عينيّ الحاج رشوان بدموع لا تتناسب مع هيئته الوقورة، وقال بصوت مختلج:

ـ لقد تحطم قلبي، وظننت إني نجحت في جمع أجزائه المتناثرة طيلة السنوات الماضية، إلى أن جمعني الله مع فريال من جديد، فعرفت حينها المعنى الحقيقي لرأب صدع القلب ، فكما يقال (دواء المحب حبيبه).

فسالت دموع فريال هانم تأثرًا من قوله، فأضاف:

ـ لذا أرجو أن يكون وصل ما قطعه جدك على يديك أنت يا عدنان، وأن توافق على زواجنا.

فأخفضت فريال هانم رأسها، حين نظر لها عدنان، فقالت ريم مشجعة:

ـ وافقي يا خالتي، ائذني لبذور الحب التي نثرتها فوق هذه الأرض أن تنبت.

فسألتها فريال هانم وهي تنظر بخجل إلى عدنان من بين دموعها وبصوت يملؤه الأمل:

ـ الآن؟ بعد ثلاثين عامًا؟

فرد الحاج رشوان بلهفة:

ـ نعم الآن، فلكل زهرة موسم لتتفتح فيه، وهذا موسمنا الذي قدره الله لنا بعد ثلاثين عامًا.

فسالت الدموع على وجهها، فتابع الحاج رشوان بكل ما أوتي من رجاء:

ـ وافقي يا ابنة عمتي.

فنظرت إلى عدنان مجددًا، فوضع يديه على كتفيها، وقال مشجعًا وقد لاحظ إحراجها منه:

ـ اعلمي يا خالتي أنني سأكون أول الداعمين لأي قرار تتخذينه.

فتهلل وجهها، وتوترت أنفاسها، وهي تقول:

ـ إذن، إن وافق ابني عدنان، فأنا أوافق.

فتوجهت العيون المترقبة إلى عدنان، فمسح دموعها برقة، وقبل رأسها بحب، قائلًا وقد دمعت عيناه من الفرح:

ـ أوافق بكل تأكيد يا حبيبتي، فبعض أحكام الحب لا تسقط بالتقادم.

خاتمة

دخلت ريم المطبخ، فوجدت فتحية، فقالت لها بمرح:

- ما هذه الروائح الزكية يا خالة؟

فقالت فتحية، وهي تخرج الصينية من الفرن.

- قامت فريال هانم وابناكِ، وأحفاد الحاج رشوان بجمع البيض وطلبوا مني إعداد كعكة دقيق الذرة.

ـ سلمت يداكِ، تبدو شهية.

- إذن هيا استعجلي أمك وعدنان، وتعالوا لتشاركونا الشاي والكعكة.

- حسنًا، هل رأيتِ خالتي فريال؟

- افتحي الباب المفضي إلى الحديقة، وستجدينها أمامك.

فتحت ريم الباب وابتسمت وهي ترى فريال هانم تقوم بشوي الذرة بمساعدة أحمد، بجوارهما الحاج رشوان يعد الشاي على الفحم، وابنته فريال تلاعب أبنائها مع علي ابن ريم وعدنان، فقالت فريال هانم بمرح:

ـ تعالي يا ريم اجلسي معنا، كعكة دقيق الذرة في الطريق.

- سأبحث عن عدنان ليأكلها معنا، تعرفين أنه يحبها.

- طبعًا أعرف، لذلك طلبت من فتحية صنعها، وأنت يا فريال يا ابنتي، اتصلي بأخويك فارس وتوفيق، لقد تأخرا كثيرًا.

- حسنًا يا أمي.

وقالت لها ريم:

- لقد اتصلت بي سهام منذ قليل، وهي الآن في القرية السياحية تضع اللمسات النهائية لحفل الذكرى الخامسة لافتتاحها؟

فسألتها فريال هانم بقلق:

ـ ماذا عن زوجها وابنيها هل جاؤوا معها؟

ـ نعم، وسيصلون إلى هنا بعد قليل، سأذهب لأخبر عدنان بذلك.

قال لها الحاج رشوان:

ـ أخبريه كذلك أن الشاي سيبرد.

- سلمت يداك يا عمي، هل رأيته؟

ـ توجه مع أمك وابنيكما نحو الحديقة الأمامية.

بحثت ريم عن عدنان بعينيها في الحديقة الأمامية، فلم تجده، وسمعت صوته يناديها:

- ريم!

فتتبعت الصوت، وإذا به في نافذة غرفتها القديمة ببيت جدها، فانتفض قلبها فرحًا، كما يحدث لها في كل مرة تراه فيها، ولوحت له بيدها، فأضاءت وجهه الابتسامة، وتأملها بحب، وهي تحث الخطى إليه، حتى خرجت من القصر، وتوجهت نحو بيت جدها، فمرت من أمام الكُتّاب، وحيَّت أمها وهي تُسمِّع القرآن لأحد الأطفال:

- السلام عليكم يا أمي.

فابتسمت أمها، وأومأت لها برأسها بسعادة، وكان ابنها يوسف منشغلًا بالمراجعة قبل التسميع، لكنها لوحت له بيدها، وصعدت السلالم بسرعة، متوجهة نحو عدنان في شوق، فمد يده لها وجذبها، إلى أن وقفت بجواره، فتأملت وجه ابنيهما النائم بسلام فوق صدر أبيه، وسألته بهمس حتى لا توقظ الصغير:

ـ لماذا أشعر أنك تحب ريان أكثر من أخويه علي ويوسف؟

فنظر لها بابتسامة، وقال:

ـ كلهم أحبابي، لكن ريان الوحيد الذي يحمل اسمه أول حرفين من اسمك وآخر حرفين من اسمي.

ابتسمت ريم بسعادة وهي تسمع رده، وقالت بتأثر:

- تستحق على ردك هذا العلامة الكاملة.

فابتسم برقة، وداعبت وجه ريان، ثم قالت:

- اتصلت سهام بي، وهي الآن في القرية السياحية، تتابع استعدادات حفل المساء، والحاج رشوان يستعجلك لتشرب الشاي قبل أن يبرد، فماذا يفعل حبيبي هنا؟

ـ صحبت يوسف مع جدته إلى الكُتّاب، وعندما اقترب دوره في التسميع، طلب مني أن أنتظره بعيدًا حتى لا يتشتت أمامي، ولا يتمكن من التسميع.

ضحكت ريم، وقالت:

- يذكرني بنفسي، كنت أقول هذا لأمي...

لم تكمل ريم الجملة، ورأت يوسف يدخل إليهما غاضبًا، وقال بانفعال:

- لن أذهب إلى كُتّاب جدتي مرة أخرى، تقول لي أمام أصحابي أن تسميعي متفلت مثل أمي.

ضحكت ريم، وقالت بمرح:

- يا الله! سمعتي ملأت الفيوم.

فضحك عدنان بعذوبة، ودخلت أمها خلف يوسف، وقالت بابتسامة:

- لقد سمعتك يا يوسف، أتشكو مني؟

فقال عدنان بلطف:

- لا تقلقي يا خالتي، أنا سأتولى تحفظيه معك بنفسي، هو وأبناء القرية.

فنظرت له السيدة فوزية بسعادة، وسألته:

- هل تريد الانضمام إليّ في الكُتّاب؟

فقال عدنان بتأكيد:

- نعم، وأود أن تكوني أول من يعلم عن نيتي لبناء مركز يتكون من مسجد وكُتَّاب لتحفيظ القرآن هنا، على أن يتم بناؤه إن شاء الله، على الأرض المجاورة للقصر، امتدادًا لكُتّاب الحاج عبد الكريم عبد الصمد، وسيحمل اسمه تخليدًا لذكراه.

فلمعت الدموع في عينيها، وقالت:

- عدنان يا بُني، لقد فاجأتني، وأسعدتني...

قاطعها رنين هاتفها المحمول، وكانت المتصلة فريال هانم، فردت بابتسامة من بين دموعها:

- نعم، لقد انهيت الحلقة منذ قليل، حقًا، حسنًا نحن قادمون فورًا.

وأنهت المكالمة، ونظرت إلى يوسف، وقالت بحماس:

- هيا بنا يا يوسف، لقد نضجت كعكة دقيق الذرة، وجدتك فريال تنتظر قدومك قبل أن تقوم بتوزيعها.

فقال يوسف بسعادة وهو يمسك يدها ويشدها صوب الباب:

- هيا بنا إذن يا جدتي، لقد جمعت لها أكبر عدد من البيض.

ضحك عدنان وريم، وهما يشاهدان يوسف، وقد نسي غضبه من جدته في الحال، واقتربت ريم من عدنان، وقالت بسعادة:

- ما أجمل فكرة المركز يا حبيبي! متى فكرت بها؟

فتنهد براحة، وقال:

- كلما أتيت إلى هذا الكُتَّاب، أذكر مقولة "حيث ترتاح روحك، أقم خيمتك فهذا موطنك" وأنا بالفعل عندما أكون وسط حفظة القرآن في الكُتّاب أشعر وكأنني لا أسير على الأرض فحسب، بل أحلق في السماء.

- لا عجب في ذلك، فطلبة العلم تحفهم الملائكة بأجنحتهم.

- هذا هو التفسير الحق، والوصف الأدق لما أشعر به، أنا أجد روحي منتعشة هنا، لقد كنت رائدًا في طريق المال والأعمال، وعند أول كبوة لفظني ذاك الطريق، وتنكر لي أهله، ولم ينقذني سوى نور طريق الله، على يديكِ أنتِ يا عزيزة الروح.

لمعت عيني ريم ببريق السعادة، وهي تنظر لعدنان بولهٍ، وسألته بحب:

- عزيزة الروح؟

- أعرف أنك تحبين جلال الدين الرومي، وهذه إحدى مقولاته "كلهم رفاق، إلا من انتشلك من حزنك، وآمن بك، وراهن على نجاتك، هذا يسمى عزيز الروح"

فهمست بحب:

- ما أعذب ردودك يا عدنان.

ونظرت إلى الغرفة بحنين، وسألته:

- هل سيدخل بيت جدي ضمن المركز؟

فقال بابتسامة:

- لا، يا حبيبتي، بل سأقوم بترميمه، وإبقائه على حاله بجوار المركز، لكي يتسنى لي أن أقف في هذه النافذة الحبيبة لأتشمم عبق النسمة التي ولجت إلى قلبي عبرها ذات يوم، تلك النسمة التي اختارها الله ليقيم بها جدار روحي الذي أردت له أن ينهدم ذات يوم.

فقالت ريم بيقين:

- "إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا" صدق الله العظيم.

واستندت برأسها إلى كتف عدنان، فغمرتها السكينة القديمة نفسها، التي تغمرها بقربه، ونظرت إلى القصر الحبيب، وحيَّته بصمت كما اعتادت أن تفعل، وقد عرفت أخيرًا سر الرابطة الخفية التي ربطتها به، بعد أن صار لها سكنًا ولقلبها عنوانًا.

تـمـــت بحـمـد الـلـه

محتويات الرواية

إهداء..... 4

الفصل الأول (كان اسمه عدنان) 5

الفصل الثاني (بريقُ نورٍ لا يخبو) 23

الفصل الثالث (سأكون الجندي الوحيد في جيشك)..... 45

الفصل الرابع (طرقات على القلب)..... 63

الفصل الخامس (أنين امرأة على مسامع القلب) 81

الفصل السادس (عودة الروح إلى الجسد) 93

الفصل السابع (لقاء الذكريات)..... 116

(الفصل الثامن) (المكافأة الصادمة) 133

الفصل التاسع (المواجهة العاصفة).....150

الفصل العاشر (لحن الرحيل).....173

الفصل الحادي عشر (دواء المحب حبيبه) 187

خاتمة.....197

محتويات الرواية 204

dewanalarabegypt@gmail.com

01030502390

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.